٩ ساعات

إبراهيم على

٩ ساعات

إبراهيم على
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2019/2142

دار فصلة للنشر والتوزيع
٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع
من عثمان محرم - هرم - جيزه
.٢٣٥٦٢٩٣٦٩
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

٩ ساعات

إبراهيم على

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إلي صديقي الدائم ، صديق طفولتي و مراهقتي و شبابي و صديقي إلي أن يشاء الله أن نفترق ، إلي صديقي الذي لطالما استمع لآنيني دون أن اتفوه بكلمة واحدة ، الذي لطالما علم الحقيقة كاملة حتي و أن لم اخبر بها احداً ، هو وحده - بعد الله يعلم كل شئ خبئته و يدري تمام الدراية لماذا خبئته

لصديقي الذي لم يتوان لثانيه عن دعمي و دفعى لخطوات جديدة.

للأسف هو لم يقدر يوماً علي التحدث لأحد أو وصف كل ما يچول بصدره رغم أنه الوحيد القادر علي وصف كل شئ بي.

لطالما وددت أن أُعرفُ الآخرين به ، لكن دوماً واجهت مشكلة واحدة! ، بما سيلقبه العالم؟

للأسف لا إسم له ، و لا حتي أعرف وچهه ، لا يمكن لأحد غيري أن يحدثه أو يأخذ منه نصيحة ، كل ما اعرفه عنه أنه صديقي الدائم مهما حدث ولو كنت اكثر احفاد آدم خبثا علي الارض فلن يهچرني ..

كل ما اعرفه عنه أنه صديقي تماماً بمثل عُمري ، متاح بأي وقت ، حنون و صادق معي ، لم يأتيني يوماً لمصلحته هو و لن يبتعد إن غفلت عنه أنا.

لصديقي الذي لم تأتِ فرصة لكي يتحدث للعامه بلسانه هو ، لصديقي الذي أعطاني أنا فقط حق محادثته و الإستفادة من حبه الخالص لي ..

لصديقي الخيالي القابع بداخلي أنا ، إليك أنت أهديك روايتي الثانية.

سأنتظر نقدك لروايتي ، كما نقدت الإهداء بأعذب طريقة ممكنة أثناء كتابته لك!

بناية ضخمة ليست بالجديدة ولا هي قديمة، غير حاجتها لدِهان جديد يواري اصفرار شيخوختها، تعددت طوابقها،

اثنا عشر طابقًا، ضموا أشخاص بعشرات القصص ومئات الدوافع وآلاف المبررات.

بناية سُميت «فندقًا» ظلت طيلة ما يزيد عن ثلاثين عامًا مرتع ومُتردّ للكثير، ألوف من الناس قد دنست أقدامهم -المُترفعة عن الحياء المائلة للعربدة والسُكرِ- شرف قطرات العرق المتساقطة من العاملين هنالك على أرض تلك البناية وآخرون قادهم نصيبهم إلى هناك بعد أن فقدوا أي شيء يتصل بالعالم خارج تلك البناية فقط، أناس داعبهم الحظ وأتاهم إلى صميم ما بدأ تفكيرهم به لبضع ثوان فقط، وآخرون راودتهم الحياة عن أنفسهم فما استطاعوا أن يكونوا كيُوُسُفٌ ولو لدقائق رغم وصولهم لذات المصير وإن اختلف شكل ومدة المَحبَس.

كانت أيام راحته على عكس مُسماها تمامًا، لم تتسم يومًا بالتخفيف عنه أو إعطائه قدرًا كافيًا من الابتعاد عن تلك الأوامر غير القابلة للعصيان، أو حتى لتأجيلها لثوانٍ تُعد على أصابع اليد الواحدة، أسبوعٌ واحد أو عشرة أيام كل أربعين يوم، يقضيهما بعيدًا عن أهله كما يقضي المُتبقي من تلك الأيام الأربعين في عزلة عنهم، كأنه خرج من تجنيد عسكري إجباري لتجنيد آخر، لكنه تلك المرة مدني أصيل، لا يملك من أمر يومه شيئًا، يبيت بتلك البقعة من المطبخ المُتسخة ببقايا أطعمة غير ملموسة بعد أن هجرها طالبوها ترفًا، بين كؤوس الخمر وزجاجاته، تحت ماكينات غسيل الصحون وأمام ثلاجة لحفظ المشروبات النجسة تلك، كان بردها رُعبًا وفزعًا له، ما كان هذا إلا مكان إخضاعه الجديد، ساعتان ربما أو ثلاثة بطول اليوم هم راحته، كان هذا اتفاقه مع رئيس النادلين، اتفقا على أن عمله سيكون ست عشرة ساعة يوميًا، تلك هي المواعيد الرسمية، ربما قد تصل إلى ثماني عشرة أو حتى تسع عشرة ساعة فعمله ينتهي حين ينتهي الآخرون من ملذاتهم التي قد تستمر لثمان ساعات فقط، ولكن إن أراد مالًا أكثر فعليه العمل لساعات أطول، لذا صار عليه الانتظار ليوم كامل إلا ثلاث ساعات غالبًا لينال بضع دقائق ينظر فيهم لأمر مأكله ومشربه والمتبقي من صحته المهترئة، لم يكن له بُد من الموافقة على تلك الشروط المُجحفة، وافق فقط ليجني جنيهات قلة قد تستر عورات حاجة أسرته بتلك الفترة التي يعد بها لثكنته.

الساعة الثامنة إلا عشرين دقيقة صباحًا، كعادته من خلف ستائر بالية وضعوها بالأساس لتُبرد جسد من يجاورها لا أن تدفئه، لامس ضياء الشمس الخافت مقلة عينه شديدة الحُمرة المفتوحة على استحياء من شدة الإرهاق، فارق النوم على مضد كما تفارق الأم الحنون أولادها الموتى، لم يتأخر يومًا عن ميعاده حتى وإن صار جسده هزيلًا، وعقله بات يشرد طويلًا من قلة النوم، بل الأدهى أن استيقاظه كان يعني أن الساعة قد وصلت إلى السابعة وأربعين دقيقة حتى وإن اختفت كافة لوحات إظهار الوقت بالعالم، ميقات لا يمكن له أن يفوته وإلا الخصم من راتبه الشحيح، وهو من لم يكن له من نقاط ضعف سوى راتبه الذي يرسله بنهاية كل أسبوع لوالدته، عزيز

عبد الباقي ذاك النحيف بفعل الفقر لا من أجل التطلع لجسد عارض أزياء ممشوق، كمثل أقرانه من وسط الصعيد شديد السمار يعتريه الطول يَلفهُ جلد لاصق العظام وصار عليها شفافًا حتى وإن انحسرت الشفافية -لأول مرة- على اللون البُني الداكن، لم يملك شيئًا بارزًا بتفاصيل جسده قدر وجهه، فلم يملك شيئًا أكبر من تلك القصبة الهوائية المنتفخة للخارج المسماة في الوسط الدارج والعامي تفاحة آدم، تلاها -بشكل غير مباشر- شفاهه الغليظة الممتلئة عن أخرها حد الفيضان على ذقنه المدبب، ومن ثم أنفه الخِضَم الذي كان بمثابة أنبوب أكسجين معلق بوجهه من ضخامته، أنف منتفخ له عرض ليس بالقليل من أسفل ومن أعلاه، وإن قل هنالك قليلًا، عيناه غائرتان بوجهه، كأن أحدًا قد أمضى الليل بطوله يجذبهما لداخل تجويفهما، شعرٌ أسود مُجعد ثائر غير قابل للمهادنة أو الاستسلام، بات يطلق بعنان قصائص شعيراته القصيرة -بفعل الحلاقة العسكرية- بكل حدب وصوب على رأسه، أخرج عزيز زي عمله المعتاد من كيس بلاستيكي كان -على الأرجح- من الأشياء القليلة التي امتلكها دون قرض أو دين أو أقساط، حافظ على ثبات يده عند إخراجه لملابسه على المرتبة جيدًا، فمن يعلم من أين قد يأتي ببضعة جنيهات أخرى لفرد ملابسه مرة أخرى عند المكوجي القابع بالناحية المقابلة للفندق، لَف جسده النحيف بقميص أبيض لا يدفئ ولا يغني عن برد، عَلقّ بياقته بيبونًا أسودًا، ومن ثم ستر فخذاه وركبته حتى كعبيه ببنطال أسود، وأسفله حذائه المهترئ ذو النعل المنحول سلفًا ماسحًا وجه حذائه -كما الشائع- بالجزء الخلفي من بنطاله ليغض الطرف عن حفنة من تراب أصابت لمعان حذائه، خرج من المطبخ الذي لازمه طوال تسعين دقيقة وقت نومه، بدأ سجاد الممر المؤدي لصالة الاستقبال يأخذ من نعل حذائه أكثر فأكثر حتى وصل لـعادل الأخرس؛ ليعلن عن إفاقته وبدئه لفترة عمله الصباحية حين طلب بضعه مفاتيح تخص المخزن ليخرج منه ما يحتاج له بعمله حتى استوقفته صابرين عاملة النظافة تلك لتسأله سؤالها المعتاد هذا الغائب منذ بضعة أيام:

- «أحسبك بخير اليوم؟!»

قاطعها بابتسامة مقتضبة لم تر أسنانه منها شعاع من نور:

= «كالمعتاد على القول إني بخير وإن اختلفت درجة الخير عن غيري.

وماذا عنكِ؟ وعن صغيرك؟»

ودت لو أنه لم يسألها، لكنها لم تكن يومًا فظة حد إحراجها أحدًا، أدارت عينيها عنه كيلا يستشف الكذب بعينيها محدثة إياه:

«نحمد الله، أنا بخير وهو كذلك، لا ينقصنا شيء ولا يمسنا سوء بفضله ورضاه عنا».

حاولت تفادي القادم الذي تعلمه قبل حدوثه لذا صارت تلفظ الكلمات وهي تجر قدميها بعيدًا عنه رويدًا رويدًا:

- «أستميحك عذرًا، لكن عليّ الذهاب الآن، على الأرجح اليوم سيكون مليء بالكثير لأقوم به».

لم يقدر فضول عادل على منحه القليل من الصبر، همس بأذن عزيز: «من تلك؟

ولم وجهها شاحب لهذا الحد، ولم هربت منك كأنها ارتكبت جرمًا أو تخبئ سرًا تخاف أن يُفشي؟!»

تعجب عزيز عبد الباقي من السؤال، فأجابه بسؤال مثله:

- «أولم تكن هنا فتراها من قبل وتسألني سؤالك هذا؟»

بدت سمات التراجع والتوتر على عادل:

- «صدقني! لم أرها من قبل، فقد بدأت عملي هنا منذ أسبوعين، وها قد رأيتها للمرة الأولى، لا أعرف شيئًا عنها! تعجبت لحالها وملامحها الممسوحة

الباهتة، وقد رأيتك تحادثها فقذف حديثكم ببالي أنكما حتمًا تعرفان بعضكما لذا أسألك عنها!»

هز عزيز رأسه موضحًا تفهمه للموقف ولم يرد الإجهاز عليها بغيابها:

- «لا شيء يستحق الحديث، هي امرأة ولم نعرف يومًا بقريتي رجلًا يُقبح حديثه بكلمة عن امرأة بغيابها، بجانب هذا، هي لا تحب أن يعرف أحدًا شيئًا عنها ولا عن حالها، ولا تحب أن يسأل أحد مثل سؤالك هذا، لكن إن أردت القول بشأنها، فما عليك إلا الدعاء لها بالشفاء وبالرأفة لابنها ذي الخمس سنوات!»

لم يقدر عادل الأخرس على النطق بحرف واحد بعد ذلك، هُزتْ رأسه تلقائيًا -دون إرادة منه- متفهمًا ما قد سمعه لتوه وصار يردد: «اللهم أشفها وارأف بطفلها».

أراد عزيز أن ينهي للحديث عن صابرين أي أمل بالمعاودة مرة أخرى؛ فباغت عادل الأخرس بسؤال قد يلهيه عنها:

- «ومنذ متى وأنت تعمل هنا؟»

= «اليوم هو الثالث لي، أنت تعلم هذا فقد رأيتني من قبل! لكن السادس لي فقد عملت بضعة أيام كمتدرب!»

- «وتلك هي المرة الأولى لك بهذا الشأن أم أنك من ذوي الخبرات؟»

= «لا، تلك هي المرة الأولى لي بهذا المجال، لم أقف يومًا بذات مكاني، لكني مضطر!»

قالها وصمتْ بغتة! حينها علم عادل أن الفضول جين بشري موجود بكل منا!

فعاد إليه من جديد بسؤال آخر:

- «وما قد يجعلك مضطر لأن تعمل عملًا لم تعرفه نفسك من قبل؟»

ابتسم عادل كأنه أخيرًا وجد شخصًا يسأل عما يروض صَدرُهُ فينقطع لسانه عن البوح:

- «حسنًا! أنا هنا فقط لأجلها ولأكون دومًا بجانبها، متابعًا لها!»

بدأ عزيز عبد الباقي بالتحديق وبدأت نظرات الاهتمام تستقر أكثر فأكثر على عينيه، وما إن رأى الأول فضول الأخير قرر ألا يترك عقله إلا وهو مشتت بالتفكير فيمن حدثه عنها:

- «أعرف أنك تود أن تعرف من هي ولم كُل هذا، لكن ليس كل ذلك المهم، إنما الأهم هو أني لم أعرف يومًا طريقًا للإفراج عما قيدته بصدري، ولم أرد منك شيئًا إلا أن تخبرني ما السبيل إلى ذلك؟

ألست مهتم بالشعر وما شابهه من الأدب؟ محمد عبد الله كان قد أخبرني بذلك أول يوم لي هنا، بات الليل بأسره يعرفني على كل شخص هنا، ما يحب وما يكره وما عمله هنا وعلاقتي أنا به.

و كان قد حدثني عنك أنك مهتمٌ بالشعر وقواعده وآدابه، أهذا صحيح أم افتراه؟»

ابتسم عزيز قليلًا، ابتسامة غلفها الخجل والفخر بوقت واحد، أحنى رأسه قليلًا للأرض وصار صوته غير واضح بفعل ضحكاته المكتومة عن عمد منه:

- «كلا! حديثه لم يكن افتراءً! أنا بالفعل شاعر لكني لا زلت من أولئك المغمورين الذين يطمحون لرُبع فرصة فقط وأنا متكفلٌ بما بقيَّ!

لكنها لم تأت حتى الآن، وأغلب الظن أنها لن تأتي كذلك، أتدري؟

وقت كنت بأخر أشهر مرحلة الثانوية العامة، قُبيل بدء الاختبارات المصيرية تلك، تَوفي والدي أو لِنَقُل استشهد، فقد وافته المنية على حين غُرة وهو

يسعى على زاد بناته الصغار، وأكبر أولاده الذي لم يكن بذاك أتم ثمانية عشر ربيعًا.

حين احترق به أحد القطارات المتجهة للشمال قادمة من الجنوب المُعتم المجهول، بعدها علمت أن أحد أكبر المسؤولين بقريتنا قد قرر صرف تعويض رمزي -بحق الكلمة- لنا، وطلب أن يراني ليواسيني ويطيب خاطري ببضع كلمات أشدد بها أزري، وقتها كان بداية عهدي بالشعر، فكانت أول قصيدة أكتبها، وقفت أمامه وصِرتُ ألقيها عليه وعلى من حضر من حرسه ومرافقيه، للأسف لم أعرف قبلها انتمائه لنظام الحكم وقربه من أحد أهم الوزراء، فكانت قصيدتي ثقيلة على قلبه».

توقف عزيز عن الحديث وتبدلت كلماته بتنهيدات طويلة، ظهر أثرها بسبب إصابته بمرض الربو الشعبي، أخرج دوائه المتمثل ببخاخ ينشر بعض الهواء داخل رئتيه المصابتين فيقاوم قليلًا، نهض عادل الأخرس تاركًا كرسيه المطلي بدهان أسود ناعم، أمسك بكتفيه وربت عليهما ليخفف عنه ما أثقلهما:

«أأنت بخير؟

أتحتاج لطبيب؟»

= «لا، اعتدت على هذا، لا تقلق، هو طبيعي!»

- «إن أردت أن تُكمل حديثك فسأكون أمين سِرُك!»

= «لا سر هنا يا صديقي!

قلبه الذي لم يتحمل قصديتي تلك، حمدًا لله أنه كان بقلبه مثقال ذرة من رحمة، فعفا عنا أنا وأمي وإخوتي ولم يكبلنا بقيود نتيجة لتمردنا، حتى ولو كانت مجرد كلمات ذات قافية، لكن مقابل أن يرفع عنه معوناته الشهرية تلك! فصار لازمًا عليّ أن أعمل وقت دراستي بالجامعة، أو لنقل من بعد إنهائي لاختبارات الثانوية العامة».

قاطعه عادل: - «وهذا ما أصابك بدائك؟»

= «إلى حد ما نعم، عملتُ بمصنعٍ لتقطيع الرخام وما كان من غبار الرخام هذا إلا أن أصاب صدري بربو شعبي مزمن!»

- «ولهذا فكرت أن ...»

قاطعه عزيز قبل أن يكمل حديثه، رغبة بالرأفة بحال نفسه:

- «لننتهي من هذا، إن استمعت لي لمدة طويلة فربما تصيب روحك بما يُنفركُ عني، فلا تدع فضولك يطغى عليك، لكن حدثني، لم سألتني عن كتاباتي ومال هذا بتلك التي أخبرتني إنك جئت ها هنا فقط لأجلها؟»

حاول عادل لفظ ما في قلبه، إلا أن قدوم شريف أبو السعود كان له رأيًا آخر، قاطع حديثهما بمشيته التي متى شوهدت تتوقف لها قلوب الرجال عن الخفقان من رونقها، مشيةٌ أصابها الكِبر لرجلٍ هيئته مُنمقة اعتلاها قليلًا من الالتفات لأي شيء أو لأي شخص والكثير من العِزة والكِبر، لكن نظرات الأخيرين كانت تستحق الإشفاق عليها والمَنّ عليها ببضع كلمات حانية وإن بدا وجهه مُتهكمًا مستهزئًا:

- «ما لكم جاحظين هكذا؟ تكاد أعينكما تخرج من وجهيكما؟»

حاول عزيز عبد الباقي أن يبرر أي شيء أو أن يرد على الأول بأي كلمة قد تقلل من انحسار هيبتهما وسط جدران صالة الانتظار الخاوية من أي شخص غير ثلاثتهم:

- «لا! لسنا ناظرين لشيء ولكن...»

قاطعه شريف أبو السعود: «وهل صابرين هُنا أم أنها كعادتها تتلكأ وتُرد مالًا دون عمل؟»

نبتت عينا عزيز عبد الباقي للخارج للحظات وصارت تُزهر شررًا من فروع

غيظها وهو يجادل الأول:

- «هي هُنا، قبل أن تأتي أنت! وأين لك أن تتحدث عن العمل وأنت تتربح من غير ذي عَرَقِك!»

ابتسم أبو السعود فقط لثانية أو اثنتين وهو يحاول التخفيف عن تلك اللكمة التي تلقاها بوجهه وخصوصًا أمام ذاك الجديد:

- «أنتم كلكم هكذا، ترددون شعارات دون عِلم، تقولون أن مبادئكم هي ما تسترون به بدنكم، تطيبون خاطركم ببضع كلمات كالشرف والأمانة والمسالمة وأنتم تبيتون بعضًا من لياليكم ببطون خاوية، أتلك الكلمات ستطعمكم؟ ستسقيكم؟ ستدفع ما عليكم من أقساط؟ ستعلم أبنائكم؟

أم أنكم لأنكم لستم كفئًا بتلك الدرجة تنالون ممن يستحقونها؟

قل لي! أنت هنا مما يربو على عام تقريبًا وتنال حفنة نقود!

هل تبيتُ مطمئنًا على إخوتك إن خدشت قلبك رصاصة؟ هل تعرف متى ستتزوج؟

وإن علمت! هل تعلم من الآن ما مصير طفلك الأول؟ الثاني؟ هل حتى تعلم كيف ستنفق عليهم؟

أنت لا تعلمُ شيئًا! ولا تستحق شيئًا، لذا دعك من تلك المقارنات الواهية ولا تُحدث ضجيجًا أنت غير قادر على سماعه».

صمت الكُل وكأن الله خلقهم دون أحلاق! صمت الكُل كأنهم أعجاز نخل خاوية! غير قادرين على الكلام أو الهمهمة أو حتى الزفير بصوتٍ عالٍ، صار صوت قلوبهم يُسمعُ على بُعد!

عاد إليهما أبو السعود برصاصة الرحمة:

- «الآن وضح كُل شيء! أعتقد أن أمُك كانت على حق حين علمتك أنك لم تكن بقادر على شيطان فلا تعبث معه وإلا سيمسك منه سوء، لذا اصغ لحديث أمك وكن بحق ولدها، أتعرف؟ لهذا أُحب تربية الأمهات، لأنها تُنشئ من هم مثلكُ عاجزين عن كل شيء!»

ابتسم شريف أبو السعود مجددًا وظلت ابتسامته المزيفة المدعاة تلك على وجهه حتى وهو سائر إلى وجهته بظهره وعيناه بعين عزيز عبد الباقي.

ربت عادل على كتف عزيز عبد الباقي ودعاه لأخذ كوبًا من شاي، قال أنه أُحضر له خصيصًا من الصين وما جاورها:

«يا أخي! دعك من هذا، كل أولئك الأشخاص كهذا! كلهم يرون نفسهم الأفضل، والأقوى وداخل دوائر التأثير! دعك منه ودعني أحدثك عنها، ألم تكن تسألني عنها منذ دقائق؟»

لم يجب عزيز عبد الباقي على مُحدثه! ليس قلة احترام إنما حزنًا على حاله وعلى ما تلقته أذانه غصبًا وهو غير قادر على أن يُحيي بلسانه أي كلمات ليرد عن نفسه ذاك الضرر!

فهم عادل ما عانه ويعانيه عبد الباقي، فأكمل هو حديثه بلهجة ضاحكة بعض الشيء ليخفف عنه:

- «ألم تُرد أن أحدثك عنها؟ إذًا فلتترك لي آذنيك أُسمعهما ما كانوا يلهثون بسببه، أتعلم؟! هي بعيني كذوق كلاسيكي يَصلُح لكل أوان، دائمة، الكُل يُعجب بها، بتناسُقِها، تنال استحسان الجمع، مهما مر عليها، كما هي مُحافظة على رونقها، ومهما تبدل الزمان والمكان ستظل مُمتلكة أفئدة الرجال، كل الرجال، هي ليست كتلك الصيحات الجديدة الماجنة، الصيحات التي لا هي تُرضي كل الأذواق، ولا هي مُقدرٌ لها البقاء لفترة طويلة، هي جمال، فن

وإبداع، قِصة أسطورية يُحكى عنها، هي الاختيار الأول والأوحد إن أراد أحدهم الشعور بالأمان والثقة.

لمعت عينا عبد الباقي فرحًا بحديثٍ لم يعرف له طريقًا قط، حتى وإن عرف طرقٌ شتى للشعر، لكن تلك المعاني لم ير تجسيدًا لها يومًا إلا على لسان عادل، نظر للأخير ثانية وهو يشرد لثوانٍ حتى كان لا بد لعبد الباقي أن ينقر كتف مجاوره ليعيد له تركيزه.

- «أعتذر منك، هذا يحدث دومًا حينما يَرِد أي شيء عنها».

= «وكنت تسألني أنا إن كنت أعلم للشعر طريقًا لتُعبر لها عما يجول بداخلك؟»

ابتسم عادل حد ظهور بضع مليمترات فقط من أسنانه وعاد محدثًا عزيز عبد الباقي مجددًا:

- «هي رفيقة كُل عمل، كل فرحٍ وكل حُزنٍ، لا تنكسر بسهولة، ولا تئن إن نسيتها لفترة قد لا تكون قصيرة، هي فقط من تُذهِب العقل وتُلهي النفس وما للعين أن تُبصر سواها».

بدا جليًا أن عادل لم يعد قادرًا على تماسك نَفسِهِ، دموعه تتسابق على الانهمار، حدقتاه صارتا مملؤتين حد الفيضان، لذا رغب بنقل الحرج عنه، حتى لا يبدو منه ضعف:

- «لكن! شاعرًا مثلك، كيف له ألا يكن له عشيقة يهيم خياله في ذكراها؟ أم إنك تريد احتراف الكذب من سن صغير؟»

بادله عزيز عبد الباقي ابتسامة ارتسمت على شفاهه فقط دون أن تَرى أسنانه للشمس أشعة مذللًا رأسه للأرض خجلًا حينًا ورافعًا إياه كيلا تتساقط دموعهِ حينًا آخر:

- «لا، في الحقيقة كان لي!»

رفع عادل حاجبيه تعجُبًا لما التقطه أذناه:

- «كان؟ على الأقل الآن تأكدت من كونك غير كاذب، أنتظر منك فقط أن تُثبت لي جزء الشعر هذا!»

= «نعم، كان لي! ولن يكون هنالك مزيد، صحيح أنها هي ستكون المرة الأولى، فقد كَثُرت مثيلاتُها من قبل

لكنها كانت أطولهم إخفاءً وأكثرهم إرهاقًا وأكبرهم أملًا ومنها يُستمد الوهج.

لم تكن أول مرة يخيب فيها الأمل وينزوي الفؤاد ويهيم العقل، لكنها - على الأغلب - الأخيرة، فلا بعدها تكرار لها ولا مثيل لأي شئ بها.

لم تكن الأولى عامة وإن كانت الأولى والأخيرة في أثرها، في جمالها أو حتى في الخضوع لكل أمر آمرت به.

يومًا ما سيُعاد ذِكرُها -مع الأسف- كـمرة وسط مرات ومرات، محاولة أخرى يائسة وسط محاولات كثيرة.

ولعل هذا -وان صَغُر- كان أصعب ما بها، فلا مجال لأن تقارن أو أن تهمش أو أن توضع وسط محاولات كثيرة باهتة فاشلة وهي بالأساس أساس كل جمال ونجاح.

ستظل المحاولة الأجمل، الأعظم، الأفضل، على الأغلب ستنتهي كل صيغ التفضيل بجانبها وهي ستظل قائمة متوجهة تسر الناظرين، محاولة أخرى سلبت جزء جديد من الروح وإن كان أكبرهم، سلبت جزء كبير من شغف الحياة وإن كان الأخير.

المؤلم في الأمر أن كل المحاولات كان لها طريق للنشر والمشاركة، أما تلك فيبقى ألمها أن كل تفاصيلها خفية، غير مُعلنة، حتى أن بضع تفاصيلها رويت

بعكسها حتى تُنفي أي شبهة قد تمس صاحبها.

يومًا ما سيُعاد ذكرها، يومها ستتبدل سيول العين بأخاديد على الوجنتين من ابتسامة بعرض السماء والأرض، تتذكر كل يوم مر ولم يُحرك فيه ساكنًا خوفًا من ضياع جزئي والآن انتهت المحاولة تمامًا.

يومًا سيُعاد ذكرها وستبقى ما دامت الحياة حتى وإن حدث خطأ ما ونجحت إحدى المحاولات القادمة، التي حتمًا ستكون عبثية إرضائية فقط دون أي شغف أو عن سعي».

- «ولِمَ فتك الماضي بكل كلمة تفوهت بها؟»

= «لا شيء، كل ما هنالك أني لم أتخيل نفسي واحدًا من أولئك الذين أشفقت يومًا عليهم، وصِرتُ أتوعد أفئدتهم بإذلالها بيوم ما، لم أتخيل يومًا أن هنالك آخرًا كان ينفذ فكرتي، أنا حينما كانت فكرتي لا تزال قيد التفكير، أرجوك! ارفع عني الحرج هذا، دعك منه، فلن تستفيد شيئًا إن ظللت عمرك بأسره تسقي نبتة ماتت! دعك مني، رَ هذا المُرتَعش القادم إليك، يبدو عليه الارتباك، أم تُريدُني أن أُريك كيف تدار الأمور من موقعك هذا؟»

بَعُدَ عنهما بخمسة أمتار فقط، استند على بوابة صالة الاستقبال بعد أن بدأ الشحوب يَهُز أرجاء وجهه، تَنبُتُ من جبينه قطرات عَرَق وتنساب منه كأنه أوشك على الموت من شدة إهدار ماء جسده، تنساب القطرات على عينيه فيجففها بِمنديلٍ أبيض لم يعد به مكانٌ جاف لقطرة أخرى، يُمسكه ليضعه بجيبه ويخرج آخرًا ليمسح قطرات عرقه بها، لكن معصميه لا يساعدانه من شدة اهتزازهما، يلمح أن يديه قد تفضحانه، يحاول أن يهدئ من تنفسه وأن يثبت يديه بجيبِيه كيلا تروي أكثر من هذا.

صار يتلفت يمينًا وشِمالًا ليرى إن كان هنالك أحد يلحظه، لم يجد سوى عادل يشير إليه براحة يده كي يتقدم إليه.

عبر بضع خطوات أخيرة حتى وصل إلى الأخير وعيناه تكادان تخرجان عن حيزهما داخل جمجمته من كثرة تحركاتهما:

- «صَباحُ الخير، لدي حجز بفندقكم!»

الساعة العاشرة صباحًا ...

ما فتئت أكواب الشاي الخاص بهم أن تبرد حتى كان خالد المصري يُلقي عليهم سلامًا أقل سخونة وحميمية من مشروبهم هذا وبصوتٍ خافت:

- «صَباحُ الخير!»

نظر كُل من نبيل سلامة ومحمد عبد الله لبعضهما البعض، يستعجبان أمر المصري وتحيته تلك! لم تكن يومًا أبرد من ذاك! ولم يكن حديثه أبدًا مقتضبًا معهما هكذا، بدأ محمد عبد الله -الأكثر قربًا- لـخالد المصري كلمات قد تكون فاتحة وكاشفة لغموض المصري المريب هذا:

- «ألأنك اعتدت أننا لا نتفحص ما معك فأمنتنا ولم تعد تقرب منا لتحادثنا ولو بأقل القليل ريثما نتفقد بما جئت اليوم؟»

عاد خالد بضع خطوات بطيئة كان قد خطاها من البوابة الرئيسية للفندق تجاه صالة الاستقبال، عاد ووجهه المُنتفخ ذو الهالات السوداء التي تحيط عينيه خاضع للأرض لا يقوى على إعلائه ولو لثوانٍ ليرى أعينهما:

- «أعتذر منكما، لكن! يومي كان شاق حقًا، مررت بإحدى تُجار المُخدرات كي أبتاع منه بعض المخدرات ولسوء حظي كانت الكمية التي أردتها أكثر بكثير مما هو متاح لديه، فسألني إن كنت أستطيع أن أنتظر لساعة أو أكثر كي يحضر لي مبتغاي! ومن ثم حاولت إيجاد إحدى الصيدليات التي تعمل حتى الساعات الأولى من النهار لأجد بها بعضًا من الحُقن!»

نظر الأولان لبعضهما ضاحكين حتى آلمتهما بطناهما المُمتلئة من حديث

الأخير، غير مُصدقين له ومعتادين على حديثه هذا، ظلا يضحكان ويصدران النِكات عليه وعلى كذبته غير المحكمة حتى لم يعد نبيل قادرًا على كبح زمام فيّه أكثر من هذا:

- «يا أخي صدقني لم أر بحياتي أكثر منك شجاعة وفكاهية! أتحادث رجل شرطة وفَردُ أمن أنك تحمل مخدرات لغرفتك، والأدهى من ذلك تخبرنا أنك ستتعاطاها عن طريق حقنها بجسدك! لا أصدقك، يا أخي إن كنت لا تُريدنا أن نأكل معك، فقل لنا أنك أحضرت غداءك وهو بالكاد قد يملأ بطن الديناصور هذا».

ضحك نبيل سلامة ومحمد عبد الله أكثر حتى قاطع ضحكاتهما السفيهة تلك كلمات خالد المصري البائسة:

- «حسنًا! إن أردتما هذا! نعم لقد ابتعت طعام وهو بالكاد يكفي جسدي المُحبذ للأكل كُل صباح، هل لي الآن أن أعود إلى غرفتي رجاءً؟»

كان نبيل سلامة هو الوحيد الذي يملك حق الرد حينها حينما أشار إليه براحة يده اليمنى أن يعود إلى غرفته بعد أن أرفقها ببضع كلماتٍ:

- «حسنًا، لك ما تريد، لكن لنا حديثًا آخر!»

لم يقدر خالد المصري حتى على استخدام أي كلمات تتعلق بالشكر للثناء على ما قاله الأخير، فقط أدار رأسه -التي كانت بالفعل قد بدأت بالالتفاف قبل أن يؤذن له بالانصراف- واتجه حيث عادل ما زال واقفًا، لم ينطق بكلمة واحدة، فقط أشار إلى مِفتاح غرفته، أخذه وبدأت قدماه بالانصياع لرغباته دون تفكير، فألغت أي حاسة أخرى لديه، حتى أذنيه الدقيقتين تلك لم تنتبه لأسئلة عادل عما إذا كان بخير أو كان يحتاج لشيء ما، لم يتمن شيء سوى أن يرى باب غرفته ويخلو بمخدراته الزائدة عن الحد تلك.

ما كان للصمت الرتيب هذا أن ينقطع إلا بفضول نبيل سلامة المزمن:

- «ما شأن الغامض هذا؟ وما سر صراحته المُفرطة هذه؟ ألا يعلم أننا يمكننا أن نأخذ حديثه على محمل الجِدِ ونذيقه ما لا يقدر بدنه المُترهل هذا على تحمله؟»

ابتسم محمد عبد الله وهو يدفئ يديه بما تبقى من حرارة كوب الشاي خاصته: - «يا صديقي هذا له قِصته، قصة تُسطر بعدة مجلدات، لم يكن هذا الذي رأيته بين ليلة وضحاها، إنما سنين وليالٍ طوال».

بلهجة تعجبية عاد نبيل بسؤال جديد:

- «سنين وليالٍ طوال؟ الحق أن تكون سنين وسنين أو أيامًا ولياليَ، لكن سنين وليالٍ تلك لم أسمع عنها من قبل يا من تحمل شهادة دار العُلوم!»

= «نعم تخرجت من كُلية دار العُلوم وكذلك كنت مُحقًا حينما أخبرتك أنها كانت سنين ولياليَ!

أنت لا تعرف عن الغريب الضال هذا شيئًا! جُل ما حدث له بتلك السنوات المنصرمة كان أغلبها بلياليٍ حزينة قاتمة».

صمت محمد عبد الله مجددًا رغم علمه أن فضول نبيل سلامة ينهش صدره ويأكل عقله ولا يريد أي شيء الآن سوى أن يكمل حديثه عن الغريب ذاك!

- «يا أخي لا أعرف لِمَ تَرمِ عليّ كلماتك كأنها بضع أوراق مالية ترمي بها لراقصة بملهى ليلي! ألا يمكنك أن تُلقي كل ما جعبتك مرة واحدة وتفرغ كل ما بداخلك!»

= «كنت أعرف تمامًا أنك ستسأل السؤال هذا، لكني أجد بذاتي متعة غريبة لاختبار فضولك، على كُل حال، كما سمعتني أنادي له باسمه، لكنه أخر شيء لا زال يحتفظ به من خِلقته الأولى، مرت عليه سنوات عجاف، فلم يبق منه

شيء كما هو، كل شيء تغير، صوته، جسده، نمط حياته والأدهى والأمر من كُل هذا نَفسُهُ وما يخفيه بداخلها».

- «لكن من أين لك أن تعرف كُل هذا؟»

= «أنا أعرف خالد المصري منذ عدة سنوات، كان يَسكُن بذات الحي الذي أسكنه أنا، لطالما كان لي قدوة ومثال يحتذى به، الكُل كان يتمنى لو يمتلك ربع شغفه وحبه للحياة، دومًا مبتسم، دائم الحركة، لا يهاب شيء ولا شيء يكسر قلبه، ولا شيء قد يضعف إيمانه، لكن منذ بضع سنوات اختفى لعدة أيام، لم يعرف أحد وقتها له طريق أو أي شيء قد يدلنا عليه، ثم علمنا أنه أصيب بإحدى الأحداث المتأخرة لـثورة الشعب، وأنه قد تم احتجازه بمستشفى ولم يكن هنالك أي وسيلة اتصال وقتها كي يعلموا أي شخص، أو يسعى هو ليصل لنا ويُعلمنا بما حدث، حينها بدأ عهد التغيير به، ليس فقط من هيئة خارجية كثياب أو طريقة حديث إنما تفكير وأسلوب حياة، كانت نفسه قد ثارت بالفعل قبل جسده، تغير كثيرًا، صار رافضًا لكل شيء وأي شيء، توقفت حياته تمامًا وسارت بمسار مختلف كُليًا عما قبل و...»

قاطعه:

- «وماذا كانت حياته من قبل؟»

عاد محمد عبد الله مبتسمًا مجددًا:

- «قُلت لك، أنت لا تفوت أي شيء ولا تقدر على السيطرة على فضولك هذا!

حسنًا! خالد المصري تخرج من كُلية الهندسة بتقدير امتياز منذ عدة سنوات، قبل الثورة بسنتين أو ثلاثة لا أتذكر، والداه كانا قد توفيا قبل أن يتخرج بسنتين لذا صار يعيش وحيدًا مع أخته أميمة بشقة والديهما، بعد الثورة أُصيب خالد إصابة بالغة بقدميه، كانت قد كلفته أن يلازم فراشه لشهور، لم يقدر خلالها على أن يكون عائلًا لأخته بل كان عبئًا عليها وهي التي لم تكن

لا تزال طالبة مُستجدة بذات التخصص، لم تتوان لدقائق عن عمل بجانب دراستها لتتكفل هي به، ومن ثَم ساءت حالته النفسية وما هو أشد وطأة، موت صديقيه بواحدة من تلك الأحداث كذلك».

امتعض نبيل سلامة وتغيرت معالم وجهه:

- «ما هذا الكم من الاكتئاب والحزن يا هذا! يَكفي هذا الحد! لكن ما أتى بك إلى هنا ولم لا يحادث أحدًا غيرك!»

= «خالد المصري كان له بضعة أصدقاء يعملون هنا، وبيوم قابلته بحينا وسألته عما إذا كان يعرف كيف لي أن أجد عمل بتلك الظروف العصيبة، وقد حدثني عن الفندق هنا حيث علم من أصدقائه أن الفندق يحتاج لعدة أفراد أمن، ومن هنا جاءت الفرصة لي، لكن لِمَ لا يحادث غيري، لا أعلمها، لربما كان لا يود أن يتحدث مع شخص غريب فيسأله عن هيئته غير المرتبة تلك ووجهه الشاحب هذا!»

- «وما سِر الشحوب وانتشار السِمنة بأنحاء جسده هذا؟»

= «بعد أن أصيب إصابته تلك التي أفقدته الحركة لفترة ليست بالقصيرة وموت صديقيه، لازمه اكتئاب حاد وتشتت روحه، على إثرها، أصيب ببضع تقلبات بجسده، أتذكر أنه ذات مرة أخبرني أن طبيب ما فسرها بأنها تغيرات نفسية، كان نتاجها عدة مشاكل بالجلد، كان عِلاجُها الوحيد الَحقنُ وهو ما أثر عليه سلبًا -الأثار الجانبية للعِلاج- فما كان منه إلا أنه كَرِه نفسه وهيئته الجديدة تلك المختلفة كليًا عن ذي قبل!

ابتعد وابتعد حتى انعزل عن الناس، وترك كل شيء حتى لم يجد له موطنًا يقبع فيه سوى تلك البناية! فالحق لك أن ترحم لسانًا خلق لكي ينجي صاحبه من عزلته، فأصبح هو كمثل صاحبه عن الناس معزولًا!»

عاد نبيل سلامة يَهُز رأسه كالذي يوافق على شيء دون الاقتناع به:

- «حسنًا! لم لا تُعد لنا كوبين آخرين من خليط الشاي الخاص بك هذا بدلًا عن هذين الباردين!

أو لنجعلهم ثلاثة فها قد أتى أشيب نصف عربيد الشاي هذا».

عشق مزاحهما حتى وإن ثَقُل بعض الشيء على قلبه، به وحده يعرف أنه لا يزال على قيد الحياة وله فائدة حتى وإن كانت الفائدة بتسلية الآخرين فقط، كان يكره نبيل بكل معنى من معاني الكلمة، لذا لم يبتسم له، إنما أدار وجهه لـمحمد عبد الله، خفيف الظل هذا، بعكس ذاك الفج الذي اعتاد الاستدانة منه دون رد، رغم علمه بضيق يده، اعتاد تلويث صدره بسجائر الأخير، عنوة وقهر، ليس عن كرم أو دعوة حتى وإن كانت عابرة، لم يُكثر يومًا من حديثه مع نبيل سلامة، دومًا إجابته كانت قدر الجملة المُلقاة عليه أو أقل بقليل.

- «أشكرك على لُطفك غير المعتاد هذا!»

= «ألست حقًا مدمن المشروب الأحمر هذا؟ إذن لم تغلف شكرك بتنمر وازدراء؟»

- «ولم فهمت ذلك المغزى منها إلا إذا كنت أنت تقصد شيئًا آخر كذلك؟ لا تُعدا لي شيئًا، اجعلوهما اثنين فقط، لدي عمل طارئ واجب على إنجازه».

أراد قطع تلك المحادثة التي أوشكت على الانفجار:

- «ماذا لديك يا عم عبد السلام؟ لطالما كنت ترافقنا هنا على البوابة وقريب منا، ونادرًا ما كنت تنهي شيئًا!»

ابتسم عبد السلام له لقربه منه:

- «لا شيء لكن وردني خبر أن هنالك عُطل بكهرباء غرفة ذاك النزيل الجديد، مما أصاب شاشة التلفاز بغرفته، لذا اتصل بعادل وطلب منه إحضار شخص

من الصيانة لغرفته، راسلني عادل على هاتفي المحمول يبلغني بذلك العطل، هذا كل شيء».

أشار محمد عبد الله برأسه متفهمًا ما قاله الأخير مداعبًا إياه:

- «الله معك! فقط تأكد عند إصلاحك للعطل بغرفته أنك لم تُفسد شيئًا آخر يا شائب».

ضحك عبد السلام الكاشف وتركه مُصافحًا صديقه المداعب هذا، متجهًا لغرفة النزيل الأخير المرتعش.

عاد محمد عبد الله إلى مرافقه الأسبق نبيل سلامة كيلا تمتلئ معدته بكوبي شاي، فمعدته المترهلة تلك لا يهمها شيء مهما كان حجمه، ولا يهمها إن كان حِلٌ لها أم لا، هي دومًا تلهث خلف أي شيء وكُل شيء.

- «ما بال ذي النصف شيبة هذا! تلك أول مرة بحياتي أرى رجل نصف شعره رمادي شائب والنصف الآخر أسود!»

حرك محمد عبد الله رأسه يمينًا وشمالًا مستنكرًا حديث الأخير:

- «يا أخي دعك منه! إنك حتى لا تعرف ما يواجهه المسكين هذا!»

= «وأنت تعرف كُل شخص هنا؟ تعرف قصصهم ومآسيهم جميعًا؟»

-«نعم! أعلم كُل شيء هنا، كل شخص وكل قصة، أتعرف لم؟ لأني لم أطلب يومًا من أحدهم أن يروي لي شيئًا أو قهرته على شيء مثلما يفعل أحدهم!»

احتد صوت نبيل سلامة:- «أتقصدني؟ أجننت؟»

ضحك نبيل سلامة ضحكة قصيرة:

- «ها أنت تُبرز كل ما يقال عنك!

ألم تفكر لثوان أنك تتحدث عن كُل شخص هنا، الكُل صار يتحاشاك إن لم

نقل يكرهك، صرت عبئًا على الجميع ووجودك بحد ذاته يسبب نفور وفتور منك!»

= «أأنت جاد؟ كفاكم هراءً، أعرف أنكم تتصنعون هذا فقط لخوفكم مني!»

- «صدقني يا نبيل هم لا يخافونك، هم يخافون على سمعتهم وحياة أولادهم فقط! أتعرف الفارق بينهم؟

ألا تذكر صابرين حين صِرت تردد أنها مُصابة بمرض الإيدز فقط لأن جسدها بدأ يهزل ويضعف؟ ألا تذكر كيف حللت أن المرض وصل إليها بعد ما كنت تصفها أنها بائعة هوى من اللواتي بعن أجسادهن؟ أو عادل الذي لطالما وصفته بالسكير العربيد وأنت لا تعرف شيئًا عنه إطلاقًا!»

= «وكيف لك أن تعرف كل هذا! وأنت كنت منذ قليل تحدثني أيضًا عن خالد المصري كذلك وعن حياته قبل بضع سنين؟!»

- «لأني أكره الافتراء والتملق، أتعرفهم؟ تلك الأفعال التي تمارسها فقط لتجنب شخص ما!»

= «أتقصد مختار السيد؟»

- «أنا لم أتكلم عن شخص بعينيه، كُل شخص يعرف خطأه!»

وقف نبيل سلامة موجهًا جسده تجاهه ناكرًا كلمات الأخير ونافيًا إياها:

- «اسمح لي! لكن كل حديثكم خطأ، كلامكم كُله خطأ، ومن أين لكم أن تتأكدوا أن تلك الأقاويل والشائعات صحيحة!»

= «من حديثك! من ردود أفعالك! قلت لك أن تتملق أحدهم وتريد أن تعرف كل شيء عن كل الناس لكي تنقل أخبارهم له، فأول شيء ورد ببالك اسم مختار السيد، أليس ذلك غريبًا؟

دعك من هذا! لم دومًا لا تجلس إلا مع شريف أبو السعود الذي لا شائبة هنا إلا وتشوبه، هو فقط دون غيره؟

وحينما تريد التغيير لا تجلس إلا معي فقط لتنقل أخبار الآخرين! ألا يثير ذلك أي شيء بذهنك؟

والأفضل لك الآن أن ننهي حديثنا هذا ونبرح تلك البوابة، فها قد أتت واحدة من ضحاياك، صابرين كي تباشر عملها المعتاد الذي لطالما دنسته أنت بكلماتك النجسة تلك قبل حذائك!»

ألقى محمد عبد الله تحية للأخيرة مبتسمًا لها، عساها بإحدى تلك المرات تبادله إياها لكن وجهها يأبى ذلك، وجهها الذي بدا كغمامة أصابت سماء ضحكتها الصافية فعكرت جمالها، زينتها التي تطايرت مع رياح الشتاء العاصية ولم ولن يعد، عيناها الممسوحتان بالسواد، ليس تجملًا إنما حزنًا وعُسرًا، عيناها دومًا كانت تبدو كهالة سوداء أحاطت بقمرٍ فأسرت نورُه، وجنتاها اللاتان من المفترض أن تكونا حمراوين من ربيع شبابها، ذَبُلتا وصارتا على حافة العطب، شفاهها لم تعد وردية كما كانت، حتى وجهها المُتلحف بالبياض، انزوى عنه لون الثلج كأنه أوراق شجر متساقطة بالخريف تطاردها الريح أينما ذهبت! هَزُل جسدها أكثر مما كان هزيل، نال القِصَر أكثر فأكثر من جسدها، صار جسدها ينكمش كأنه قطعة قماش وضعت عام كامل بوعاء مُليء بالماء حد فيضانه، تبدلت ملامحها، صار السهر والحزن والوحدة هم مساحيق تجميلها، كان إرهاق روحها -قبل بدنها- يظهر على ابتسامتها التي لم تظهر لأحد من قبل، كانت دومًا على النقيض من أقرانها بالسن، كانت تختلف عنهم بالقلب قبل القالب، وهو ما كان يزيد يومًا بعد يوم بعد قضائها لسنواتها البكر حبيسة خلف قضبان الأدوية المريرة، تغير بدنها سريعًا لكن الأسرع كان عقلها، فرأت في شهور ما لم يره أحد طيلة سنين، دومًا ما كانت تسعى لتداري إحساسها بالاغتراب عنهم، إحساس أنها لم تتغير بأعينهم وأنها ما زالت تلك الجميلة المرغوبة، دائمًا ما حاولت إخفاء

حزنها على ضياع أعذب سنين عمرها بين مرضها بسرطان الدم، وقلقها على مستقبل طفلها من أم علمت بحتمية شقائها، حتى وإن نجت من موت يلازمها ويطوف حولها كأنها أراضٍ مقدسة وهو لا ينوي مغادرتها إلا وهو يحمل كل شيء يريده، حاولت مرارًا إيجاد حل بين صراع الشفاء الطويل أو الاستسلام السهل المرير، لم تكن يومًا تملك اختيارًا أو حلًا لذلك الصراع، فكل يوم تجد من يهتم فجأة لأمرها، فتنمو داخلها شجرة رغبتها بالشفاء وإن لزم الأمر سنين، لكن تنتهي تلك الشجرة بفأس بمنتصفها تمامًا حين تعلم أن ذاك الاهتمام، كان مجرد حب استطلاع واستكشاف ليس إلا، فتنوي الاستسلام، يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر، مرت عليها سنوات كذلك ولم تجد ما يريح بالها قبل بدنها، حاولت مستميتة مداواة أوجاع روحها بمزاح هناك وثأر لنفسها من الحَط منها هنالك، ولم تفلح محاولتها تلك أيضًا، لكن كل ذلك كان اليسير في الأمر، أما العسير كان حديث شريف أبو السعود رب عملها لها، أوقفها وجذبها له بتلك الساحة التي لطالما أظهرت أوجاعها لها هي وحدها فقط، ونظفت أرضها بدموعها قبل مساحيق التنظيف تلك، أتى من خلفها ممسكًا معصمها جاذبًا إياها بطريقة بدا منها إهانة:

- «أين كنتِ كل تلك الفترة؟ أين اختفيتِ ولِمَ؟»

بدا لـمحمد عبد الله أن هنالك صدام على وشك البدء، طقطق أصابع يديه الطويلة، مصدرًا صوتًا لعله يشتت الأولين، لم تتغير نظرة شريف التي دومًا ما كانت مجحفة ومُهينة، إنما تغير اتجاهها من صابرين لـمحمد، وأشار إليه برأسه أن يعد حيثما كان.

هزت رأسها يمينًا وشمالًا يائسة مما حل بها:

- «يا سيدي رَ حالي بقلبك ولا تكن ممن يرون ما يودونه فقط!»

= «أعتقد أن صوتي وسؤالي لكِ كانا واضحين، كما أنكِ تفهمين العربية بطلاقة! إذًا لم المراوغة، أريد إجابة واضحة!»

أدنت رأسها للأرض غير قادرة على إيجاد جواب واضح له:

- «كُنت مودعة إحدى المستشفيات!»

= «إحدى المستشفيات! وهل لي شأن بهذا؟ ألم أخبرك أن لدينا بعض نزلاء يُريدونك؟»

اقتربت قليلًا منه، خافضة صوتها خشية افتضاح أمرها:

- «يا سيدي أرجوك، قد أخبرتك سلفًا أني لستُ أهلًا لما تسألني بشأنه، أنا لستُ هكذا، لستُ بائعة هوى ولا ماجنة! يا سيدي أرجوك لا تكن من أولئك الذين أصابهم العَور فما عادوا يرون إلا بعين واحدة، عين الهوى، عين هواهم! فقد وهن بدني، وهام عقلي، وثُقِبَ قلبي فصارت الهموم تنساب إليه!»

= «وما شأني أنا بكل هذا! هنالك من صار يطلبك أكثر من مرة ويخصك بالذكر دومًا، لذا عليك التلبية!»

هزت رأسها بالموافقة خافضة صوتها مجددًا:

- «حسنًا، أعدك! لكن ليس هنا، ليس أمامهم، أرجوك!»

ابتسم لها ابتسامة إذلال خافضًا صوته محدثًا إياها بأذنيها:

- «الآن يُعتمد عليكِ! لكن دعيني أخبرك بشيء صغير! أترين كل أولئك الذين يقفون هنالك، وغيرهم، سيعرفون أنك سِلعة تؤجر بمدة مقابل بضع أوراق مالية! حتى وإن لم تكوني حقًا هكذا، فهم سيعرفون هذا!

أتعدينني...»

قبل أن يكمل هو كلمته، قاطعته هي:

- «نعم، أعدك!»

وضع يديه على كتفها رابتًا عليه، ابتسم لها وتركها لرأسها تعصف بها حتى صارت وسط الجميع لا ترى أحد، كأنهم باهتون، مجرد خيالات لا أكثر، عيناها اغرورقتا بالدموع منصبتان على موضع قدميها، لا تدرك شيئًا حولها أو تسمع صوتًا مما يدور، فقط تدرك أنها لا تملك من الكون سوى ٩٢ عامًا، سرطانًا يتلذذ بدمائها، طفل صغير لم ير من عذاب أمه سوى تسع سنوات هي كل عمره، وبضعة آلاف من أوراق البنكوت كانت دينًا على زوجها قبل وفاته.

بدأت دموعها تنساب من حدقة عينها الواسعة تلك حتى قاربت تلامس الأرض حين رآها محمد عبد الله سائلًا إياها عما بدر من ذلك المتغطرس سيء السمعة:

- «مال هذا الداعر يقترب منك هكذا وماذا أراد منك؟»

لم تقدر على رفع رأسها نحوه، فقط اكتفت بإجابة باهتة ذات صوت خافت:

- «لا شيء، كل شيء بخير!»

= «لكن لِمَ تيبستِ أمامه ومن ثم عَزِفت عيناك عن التماسك وأدمعت؟»

رفعت صابرين رأسها له ناظرة بعينها المليئة بدماء بهيئة دموع:

- «الطريق لليوم كانت طويلة! رأيت ما لم تره عينًا من قبل، وسمعت ما قد يحدث في الأذن صممًا من هوله، اليوم يوم طويل ومرهق لا أعلم تحديدًا ما ينتظرني مساءً، فقط أتمنى لو أن تُفتح عيناي على مكانٍ آخر لم أره من قبل ولم أشُم ريحه أبدًا، مكان لا أعرف به أحد يميز حتى وجهي كأنه مألوف له، فما فائدة من عرفتهم وميزوا وجهي سلفًا وكنت أتوسم بهم الخير، وما فائدة الأماكن المألوفة كهذه البناية التي نقبع داخلها غير أنها تثير سيء الذكريات! أتمنى فقط أن ينتهي كل هذا بهدوء، إن لم يكن لي، فليكن لذي

تسع سنوات سيُترك وحيدًا طيلة حياته».

صمت محمد عبد الله وصمت كل شيء حولهما، دون سابق إنذار، فقط أنهت صابرين كلماتها غير المبررة وغير المفهومة تلك حتى لم يقدر الأول على التفوه بكلمة أخرى ولا حتى هي، قالتها وأدارت ظهرها له تركته غير واعٍ لأي شيء مما قالته، من ذاك الذي سيُترك ولم سيُترك من الأساس وإلي أين هي ذاهبة، احتلت ذهنه المُلبد بأسئلتها حتى سالت أمطار دهشته حين صار يقلب كفيه على حالها ومن قبل ذلك على حيرته لشأنها، حيرة لم ينهه عنها سوى عبد السلام الكاشف بعد أن عاد من غرفة النزيل الجديد يروي دهشته هو الآخر مما حدث بطابق عُلويّ:

- «ما لك تُقلب كفيك هكذا يا محمد؟!»

= «لا شيء، فقط صابرين بدأت فترة تقلباتها المزاجية مبكرًا عن ذي قبل!»

- «دعك منها، متاعب حياتها تأسرها وتفتت أي ثبات لديها!

دعني أخذ برأيك بشيء ما!»

= «تفضل!»

- «غرفة المدعو هذا! غريبة بعض الشيء!

أمتعته كثيرة للغاية حتى وإن صَغُرَ حجمها، الكثير من بطاريات أجهزة الريموت، وعدد كبير من علب السجائر كأنه قد تلقي إنذارًا أن السجائر قد تنفد للأبد، وها هو يجمع كل ما يلقاه وبضعة رقائق لهواتف محمولة بكل مكان وحرقٌ بسيط بأحدي مفروشات أرضية غرفته، الأمر كان سريعًا حد أن أجهزة الإنذار لم تدرك الرماد الناتج عن البقعة المحترقة! على الأرجح حاول هو السيطرة عليه قبل أن يُبلغ بأي شيء علاوة على أن تصرفاته دومًا تثير الشكوك!»

أومأ برأسه لـعبد السلام:

- «هذا النزيل من دقائقه الأولى وكُلنا نشك بأمره، هنالك شيء ما خطأ يحدث، لكن دعنا لا نستبق الأحداث، كل شيء سيظهر، لكن دعني أعرف ما شأنك بـنبيل سلامة؟»

تحول صوت عبد السلام من الهدوء والحيرة، إلى الاحتدام المكتوم:

= «أنت تعرف جيدًا أني لا أحب أي شخص يكون عالة على أحد! والأدهى أنه ممن حَريٌ بهم أن يكونوا أخف وزنًا وأفعالًا، شُرطيٌ مثله، بمكانته تلك وبشرائطه الحمراء الموضوعة على أكتافه، لم دومًا يسرق كل من يقابله بسيف الحياء أو لنكن صرحاء مع أنفسنا بسيف النفوذ والاستبداد؟»

ابتسم ابتسامة صفراء مقاطعًا عبد السلام الكاشف:

- «يا سيد عبد السلام كُلُنا نعلم أنه هنا قهرًا وليس عن رغبة أحد منا، هو بالأساس دخيل علينا، لا أحد يعلم سبب وجوده أو ما فائدته وماذا يقدم، هو دائمًا متطفل، حتى أن وجوده عبء على فندقنا هذا، خطر داهم يحول دومًا بين الإدارة وبيننا كعاملين هنا، دومًا ما ينقل كل شيء بعكس ما دار، تابع للإدارة وعلى أتم الاستعداد أن يتخلى عنك ويبيع سيرتك الحسنة مقابل بضعة جنيهات قد لا تتخطى العشرون! لذا تحاشاه، نافقه! وليكن بعلمك هو ممن يتلذذون بذلك، يداري العيب البارز بشخصيته بكلمات زائفة يسوقها الناس عنه، يعرف أنه أقل قدرًا وأنه لم يحقق شيئًا بحياته، لم يتبق لديه شيء يغذي أحقاده الدفينة بها سوى بضع كلمات عن حمايتنا وأمننا وهو المترهل المتكاسل ذو المعدة الممتلئة بالسُحت!

أتعلم، يوميًا أتمنى لو أن يمر اليوم دون دماء أو أن يصاب أحد بمكروه طالما هو مطالب بحفظنا!»

أحس عبد السلام الكاشف بالزهو والنصر، وهو ما ارتسم على شفاهه المبتسمة قليلًا ورأسه التي صارت تتحرك بالموافقة مع كل كلمة تخرج على لسان محمد عبد الله حتى وإن كانت على لسان آخر، لأول مرة يحس بانتصار ولو صغير، حتى وإن كان مخطئ لكن على الأقل يشاركه أحدهم إحساسه، ذلك يعني أنه -على الأقل- إن لم يكن محقًا فهو ليس وحده، هنالك من يشاركه خطأه وهو ما كان يعني له كثيرًا وكثيرًا.

لكن لم تدم لحظاته التاريخية تلك طويلًا، هنالك من بوابة المصعد مَنْ قطع عليه فرحته، قادمًا ينفث دخان سيجارته فيصيب مجال رؤية وجهه بالضبابية، يتطاير الدخان -الحانق على كل من بصالة الاستقبال- للأعلى رويدًا رويدًا حتى يفصح عن وجه أكثرهم صرامة وحزم وديكتاتورية، رأس صار الشعر يتخلى عنه شيئًا فشيئًا حتى أوشك أن يصبح كصحراء جرداء لا تعمير قد يؤثر عليها، قسماتٌ قد حفرها الدهر المنصرم من عمر صاحبها، تشكلت كأنها طوابق سكنية تعلو بعضها بعضًا، عينان بنيتان قد أخفتهما نظارة شمسية سوداء تغطي من ملامح الوجه أكثر مما تبدي، وجهٌ -على الأرجح- كان يتلفح بالبياض حتى نالت منه شمس مصر فنقلته إلى خانة الذهب الداكن المائل للبنيّ، أنفٌ مدبب حاد صغير تدنوه شفاه رقيقة تعلو ذقنه المدببة، بدنٌ رياضي أو على الأقل ما تبقى من محاولة رياضي للإبقاء على نفسه، لا ثنايات خاطئة أو زائدة قد تعكر عين أحدهم حين النظر إليه، مشيته يبدو منها شخصًا مختالًا بنفسه لا يهمه شيء أو أحد بردهة الاستقبال، اختار أحد المقاعد المقاربة لمكتب الاستقبال والاستعلامات، مقعد له ناظر لكل الملازمين لتلك المنطقة المحيطة به، فإذ بهم يُدبرون عنه يخشونه، لا عن طاعة عن يقين، حتى ذاك المنتصر أخيرًا، أدرك أن لحظات الانتصار لا يجب أن تدوم طويلًا وانصرف هو الآخر لعمله، عاد مختار السيد بناظريه إلى عادل موظف الاستقبال بعد أن تفقد كل شيء -تقريبًا- بعينيه.

- «آمُل أن تكون مثل ولاء يا عادل، كانت دومًا ملتزمة وذات طابع رسمي، لا أعتقد يومًا أن أراها تخطئ أو أن تبعثر شيء أو تتلعثم بأمر ما، دائمًا منظمة،

شديدة التركيز، لا يفوتها شيء!»

تبسم له عادل مطلق لرأسه الموافقة بتحريكها لأعلى وأسفل:

- «دومًا بإذن الله ستجدني مثلها، كانت قدوتي، وأنا هنا دومًا لرفعة اسمها، وخاتم زواجنا خير دافع لي على أن يظل اسمها وسيرتها عاليين وينالان رضاء شخص ذي قيمة مثلك سيدي!»

= «حسنًا، أتمنى منك ذلك حقًا، الآن لم لا تطلب من عزيز عبد الباقي أن يقوم بدوره ولو لمرة واحدة ويعد لي قدر ما استطاع من القهوة؟»

- «لك ذلك مستر مختار».

= «لكن، أريد أن أعرف منك شيئًا يا عادل، ماتت ولاء ودُفنت وانتهى كل شيء، لم إذًا لا تزال ترتدي خاتم إصبعها فوق خاتمك؟ أُقدر تمامًا ذكراها وذكرياتك معها وحبك لها، لكن صدقني عليك الانتباه والتمتع بما هو آت، ما قُضيَّ قُضيَّ وانتهى، لا فائدة منه، إلا أنك تداري ألمك بألم آخر، أم إنك لا تنوي تصديق كلمات رجل ذي خبرات مثلي؟»

تبسم عادل خجلًا ممنيًا نفسه لو أن الأول لم يتطفل ويطرح عليه سؤالًا كهذا:

- «بالتأكيد لا مستر مختار، أثق بخبراتك وما تنعكس فيه من عبارات، لكن حتى وإن نويت إغفال الأمر برمته وكأن شيئًا لم يكن، فلن يكون بتلك السهولة واليسر، ليس فقط لأن زوجتي توفيت أو لنكن أكثر تحديدًا، قتلت، لكن الأصعب هو أنني لن أعرف من قتلها حتى ألقاها مجددًا، لن أجزم أني اقتصصت لها، والأشد مرارة من كل ذلك أن جسدها مُزق كأنه رمال صحراء جافة نثرته ريح الشتاء دون شفقة، إن كل عضو بجسدها تطاير بمكان مختلف عما كان ملتصق به ويجاوره، أتفهم خوفك سيدي، لكن دعني أجيب تساؤلك بسؤال آخر! هي كانت ترتب كل ما هو آت لنعيشه

بكنف بعضنا بعضًا لكن لماذا تَمُت هي وهي وحيدة، بعيدة عني والأدهى أنها كانت آمنة ومطمئنة ولم تحسب لذلك حسابًا قط، لِمَ غدروا بها؟ أعرف يا سيدي أنهم لم يكونوا يقصدونها هي بعينها، وإنما أُغتيلت ضمن جماعة لاختلافهم، لكن صدقني الأمر ليس كما يبدو!

مستر مختار تقطعت سُبلنا ولم يعد لطريق أن يجمعنا، لن نعود كما كنا ولن تعود لياليا الصاخبة، الصمت التام لا يزال يؤنس وحدتي ويصنع لي ضجيجًا اعتدت عليه من حينها، حين افترقت بنا الطرق وأبعدتنا الأيام، ذلك الضجيج الذي لم يتوانى يومًا عن عرض صورها أمام عينيّ ليل نهار، لحن صوتها الذي تشتاق إليه أذناي كما يشتاق دمِ مدمن للمخدرات، ذاك الدفء الذي كان دومًا يرافق قلبي ويغلفه طالما هي تجاورني أو حتى تحدثني!

كل شيء انتهى للأسف وما علينا سوى الاعتراف بذلك!»

***

الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

لم يعتد عزيز -ليس لقلة تعليمه أو لانعدام ثقافته- مجاراة أحدهم بالحوار، فلم يعرف طريقًا يكون له طوق نجاة وقتما أصبح لازمًا عليه مجاراة رب عمله ومديره مختار السيد، أحنى رأسه أرضًا، ذلولًا خاضعًا يمد يده أمام سيده مختار ليتلقى قهوته تلك التي بدأت البرودة تنساب إليها ببطء وتفقدها مرارتها لتنقلها لفم الأخير قبل أن يلفظها على هيئة سُم ببدن الأول:

- «فيما كنت تضيع كل ذاك الوقت؟ حقيقة لا أجد أي فائدة من وجودك هُنا، لولا أن كُلفتك علينا أقل من أي شخص آخر لكنت أبلغتك باستغنائنا عنك!»

تنهد عزيز وظل ملازم عينيه حد ما تقف قدماه، محدثًا سيده:

- «أتعرف يا مستر مختار أنا لم أتخيل يومًا أنه قد يوجه إلى مثل هذه

الانتقادات، لو علمت بهذا لكنت شققت معصماي بيدي هاتين ولا أني أسمع حرف واحد من كلماتك تلك!»

اعتدل مختار بجلسته تاركًا المقعد كله إلا بضع سنتيمرات قليلة من مقدمته يستند عليها جسده بأكمله:

- «وما كنت من الأساس؟ وما كنت تتخيل نفسك كي يكون لك ردٌ كردك هذا!»

= «حسنًا سيدي! دعني أخبرك من أنا كي ينشرح صدرك لما أنا أخال أني عليه! أنا أنصاف محاولات، محاولات فاشلة، لا فائدة منها ولا أمل، بدايات غير مكتملة، لم تكمل حتى منتصف طريق ولا حتى وصلت كي تكون نهايات خاسرة، فلم أفز بمتاع إكمال شيء وجني ثماره أو خسارة شيء بعد محاولات مريرة فأفز بتجارب تبعدني عن جنان ما يليه قبل نيرانه، لم أملك رفاهية اختيار بدايات إكمالها يسير ولا قوة المواصلة والاستمرار، أنا أضعف من ذلك، لذا جئت هنا، هذا ليس ما أستحقه سيدي! ليس إنكار لأنعم الله، حاشا لله، إنما تقديرًا لذاتي التي لطالما قل شأنها هنا، وهنا فقط!»

أعاد مختار ظهره مجددًا ليستند -بفقرات عموده الفقري التي كانت للتو تتألم من انحناءه تجاه عزيز- على ذات المقعد الذي لازمه من البداية:

- «أأنهيت كل ما يحمله صدرك؟»

= «إلى حد ما، نعم!»

- «حسنًا، دعني أخبرك أن كل هذا لم يعنِ لي شيئًا البتة! وعليه فحتى الآن أنت مُقصر بعملك، لذا دعني أخبرك بشكلٍ ودي ألا تأتي المكان هذا مجددًا».

= «لكن سيدي، أود أن أسألك شيئًا أخيرًا!»

أخرج مختار سيجار آخر من جيبه وأشعله كي يملأ هواء الردهة بضباب سام

لأفئدة ورئتي كل من بردهة الاستقبال:

- «أسمعك!»

= «ما شأنك بالفَصل وإقرار مصير هذا أو ذاك؟ حسنًا أعلم أنه من اختصاصات وظيفتك بشأنك المدير العام للفندق، لكن أليس هنالك من يبت بأمري ويقرر حقًا بناءً على أدلة أني لا أصلح للعمل هنا؟

أليست تلك من سياسة الفندق؟»

ضحك مختار مستهزءً بالأخير:

- «أولم تعلم؟ السياسة لنا!»

= «والإدارة المالية للفندق؟»

- «لنا كذلك!»

= «حسنًا، أليس هنالك ما يمكنك تركه لغيرك يعمل به؟»

- «أجننت؟ بالطبع هنالك!»

= «إذًا ما هو، لعلي أجد ضالتي عنده!»

صمت دقيقتين كاملتين، يبحث بعقله عن أي شيء قد يكون مثاليًا ومقنعًا أمام الجامعي هذا، لكنه لا يجد ما يغني عن التقليل من صورته أمام الأخير!

= «حسنًا دعني أخبرك أنا! لا يوجد شيء لا تتحكم به، أنت أضعف من أن تترك شيئًا خارج مجال سيطرتك وسطوتك، تريد أن تسيطر على كل شيء وأي شيء يدور بفلكك، لكنك أهملت أهم شيء وهو ما بحق لن تقدر على السيطرة عليه الآن أو لاحقًا، أنت لا تملك الفكر ولن تقدر عليه!»

ابتسم مختار ثانيتين قبل أن يودع ما تعلمه من سنوات خدمته بصدر عزيز، كل ما تعلمه من حط القدر حتى لا يرتقي من هم قليلي الشأن -مجازًا-

على من صاروا -اعتبارًا- مخدوميهم:

- «لك هذا يا عزيز، اليوم هو آخر يوم لك بيننا، الستة عشرة ساعة اللائي تقضيهم بيننا، قد استغنينا عنهم، فقط لتجد من يحترم فكرك وتجد من تسيطر أنت عليه لا من يسيطر عليك، كذلك لا أجدنا نملك فكرًا لذا أنت من الآن حر لتجد من يملك فكرًا موازيًا لفكرك وقادر على استيعابك».

بَهُتَ عزيز أمام استغناء مختار السيد عنه، لا يدري ما أن يخرج حقًا من بوابة الفندق، ما مصير دراسته وتكاليفها، ما مصير أمه وإخوته، لكن على كلٍ لا مجال للرجاء أو الاعتذار، فليكن ما يكون.

- «أشكرك سيدي على قرارك، هل لي أن أبدأ بجمع بقايا أغراضي؟»

= «العجيب أنك أضعت بضع ثوان من وقتي تسألني عن ذلك!»

حرك عزيز شفاهه مبتسمًا تفهمًا ومسايرة لما حدث ليس إلا، أدار ظهره لـمختار وعادل وعاد أدراجه، تسبقه يداه لخلع ربطة عنقه التي لم تكن تحد من أنفاسه بقدر ما فعلت كلمات الأول، فحتى ساعات عمره الضائعة تلك لم تكن شافعًا له أمام مديره، وإنهاكه الدائم لصحته لم يكن بالقدر الذي يسمح له بالمناقشة، حاولت يداه المساعدة بكبح جماح عينيه الفائرتين بالدمع حتى أغرورق وجهه عن أخره، لكنها فشلت، كما فشلت زميلتها الأولى، فلم تفلح بفك ما يساعد على التضييق على صدره، لم تقدر فصاحبها من شدة توتره أصابها بالرعشة وعدم التملك على القيام بشيء، ففشلت!

مضى حتى توقف قبيل الدرج الذي يقوده سُلمة لمقر نومه ومستودع ملابسه البالية، وقف يرمق مختار بنظرات من الأسى والحقد والبغض، لكن لا شيء باليد، حتى جاوره عادل يهدئ من روع نفسه ويخفف من اختناق فؤاده:

- «أتلك أول مرة؟ هو دومًا يفعل مثل هكذا أشياء، هي بضع دقائق فقط

ويعد كما كان وحينها سنذهب لطلب عفوه وسيعد كل شيء كما كان، فلا تقلق!»

= «لا يا عادل المرة هذه غير أي مرة، لا أريد شيئًا منه، على العكس، أود شكره على ما أكده لي من شكوك».

- «حول ماذا؟»

= «حول أني هنا لأخدمه فقط، كونه مختار فعلًا قبل أن يكون اسمًا، ولأنه سيد علينا بالفعل قبل أن يكون مديرًا لنا أو يتابع سير أي شيء!»

ابتسم عادل له قليلًا محاولًا مراجعته فيما قاله:

- «لكن دعني أبرز لك اختلافي معك هنا! أنت تعرف نشأته جيدًا كيف كانت وطبيعة عمله السابقة لذا أثر ذلك عليه بطباعه وأسلوبه!»

= «كُل هذا لا يهم الآن يا عادل، المهم بالأمر أن اليوم أخر يوم لي وكل ما هو آت سراب لا يُرى منه شيئًا ولا يُقتفى له أثر، على كُلٍ كان ما كان، دعك مني وعد له كيلا نبحث لك عن مواسٍ أنت أيضًا».

ربت عادل على كتف رفيقه دامي العينين، مُرتبك الفكر، مودعًا إياه وعاد يسحب قدميه واحدة تلو الأخرى شفقة مرة على زميل عمله ومرة خيفة مما قد يصيبه من غادر كـمختار، لا صديق له ولا غالٍ، بخطواته المتباطئة نحو مقره الثابت تذكر عادل حينما ذكرت له زوجته عدة مرات ليس بالقليلة كم غدر بأناس لا ذنب لهم ولا يد بأي شيء إلا ليحافظ على سلطته، كم عقد من صفقات وصمت بالعار والدونية فقط ليبقى كما هو دون إنقاص من أمره شيئًا، لا يهمه شيئًا فقط مركزه، لا يتخيل الفندق من دونه ودون إدارته، لا يمر يومٌ دون أن يمرر بعقول عامليه ومرؤوسيه كيف أنه هو الوحيد الأصلح للإدارة دون سواه، كيف أن عملهم من دونه سينهار، صار يجتمع دومًا

بـشريف أبو السعود رئيس الخدم ليمرر له وصاياه لتنفذ دون إنقاص أو تأجيل، وصايا أن يوصل لعقول الخدم أن بقاء مختار خيرٌ لهم، ومن دونه شقاء، لا تبحثوا عن الدراسة والتطوير والاجتهاد كي يرتقي أحدٌ منكم ليكون بمحله، فلا أحد مثله ولا غيره يصلح، هو فقط بذاته، ارتبك عقل عادل كما ترتبك البهائم البرية وقتما يطاردها مفترس ما، لا يعرف أين سيستقر فكره ولا أي طريق سيسلك، كل ما يملكه مواصلة التغاضي والركض دون تفكير ليس إلا، التوقف للتفكير هنا قد يكلفك الكثير، ربما حياتك أو ربما ستعيش لكن مشوه ومصاب بكم لا يحصى من العاهات المستديمة، أسقط الفكرة من رأسه وبدأ يوهم عقله ويثنيه عن التفكير بأي شيء حتى ولو كان بمراقبة الثريا الضخمة المتدلية من سقيفة باحة الاستقبال، ود لو أن يظل عقله لا يثبت على حاله هذه ويظل معلق بتلك الثريا ذات الأقراص الثلاث الدائرية المتراصة فوق بعضها تباعًا من الأكبر لأصغر واحدة، كأنها وردة حديثة العهد بالربيع، تتلألأ أنوارها وتضيء كل موضع أنملة بصالة الاستقبال المترامية الأبعاد، إلا عقل عادل، زادته ظلمة وحيرة مما قد يأتي لاحقًا من رب عمله، أسيأتي يوم عليه كيوم عزيز؟!

لم ينبه عقله سوى صوت قدم صابرين تدق الأرض دقًا وتعزف عليها لحن مشيتها الأخير، تتهادى كما لم تتهادَ على الأرض من قبل، كأنها إحدى عرائس الماريونت فاقدة أي إرادة للسيطرة على أطرافها وجسدها وأحدهم يحركها بيديه، لكن لسوء حظها هو ليس متمرس، وجهها أكثر شحوبًا عن ذي قبل، عيناها غاصتان بسواد الحزن قبل انصهار زينة عيناها الكاحلة عليهما، تتأوه ألف مرة ولا صوت يفارق صدرها، تستغيث بعينيها اللتين تتأرجحان يسارًا ويمينًا لعلهما يجدان ضالتهما بأحد المتواجدين، لكنهما يُخذلان كما خُذلوا ألف مرة ومرة من قبل، رأسها لا تكاد تفارق الانبساط تجاه الأرض، من فرط همها، ترفع رأسها لحظة وتنكسها أخريات، ترفعها لتبحث عن محمد عبد الله موظف الأمن الذي يعرف كل شيء عن كل شخص بمكان عملهم هذا، لكنها ليست ميزته الوحيدة، إنما كتمانه لكل شيء تقريبًا وهو المطلوب ليس أكثر، أن يدفن كل شيء ولا يعرف عنه شيئًا ولكن بعلم شخص واحد فقط،

فلو حدث شيء ما عكس المتعارف عليه يكون هو المدافع للأوضاع والوحيد الذي يحفظ ماء وجهها بغيابها، ظلت تجوب صالة الاستقبال من مشرقها لمغربها تبحث عنه حتى وجدت ضالتها عند البوابة الرئيسية، يجلس محمد بجانبها لم يفارقها لحظة ولن يفعل، هدأت دقات قلبها المتسارعة قليلًا رغم شدتها، وصارت أنفاسها أكثر نظامًا رغم سرعتها، أقدمت عليه بخطوات سريعة متساوية ثابتة كأن ثقتها بنفسها عادت لها أخيرًا، حتى رأته، وقفت بجواره دون أي تعبيرات على وجهها المائل للصُفرة، أخرجت من جيب زي عملها ورقة مطوية عدة مرات حتى صارت بحجم أنامل السبابة والوسطى معًا، أمسكت يديه وهي التي لم تفعلها من قبل أن تمس أحدًا من الرجال زملائها بعملها، أو تدع أحد يمسها بخير قبل أن يكون بسوء، لكن اليوم غير أي يوم والظرف غير أي ظرف، أبعدت أصابعه المتراصة إلى كف يده من البرودة وأودعت تلك الورقة براحة يده وأغلقتها على ورقتها وأعطته ظهرها دون التفوه بكلمة واحدة حتى، ولو حتى لتفسير ما تلك الورقة ولم أعطتها بتلك الطريقة، كان من الممكن أن تطالبه أن يأخذ تلك الورقة منها، ولِمَ وجهها شاحب دامع مغطى بعبوس ما رأى مثله يومًا عليها أو على غيرها، هم من مكانه واقفًا -بعد أن التفت هي وأعطته ظهرها وانصرفت عنه تمسح عينيها بكلتا يديها- ينوي السير خلفها ليسألها عما تركته بيده وغادرت، لكن ظهور عبد السلام الكاشف أرجأ نيته لوقت آخر حين تآكل عَقلُهُ من كَثرة التَحديق والتفكير بذاك النَزيل الصامت مثير الرِيبة بعد أن ترك غرفته ويداه مُحملتان بعدة أجهزة تحكم مُفرغة البطاريات، هيئتهُ لا تُوضِح بأي شيء قد يُثير الشُكوك، إلا ثلاثةُ أشياء، الأول فكان وضعه بطارياتٍ بالجيب المُيمَن لقميصه وأما الثاني كان وضعه لتلك البطاريات بأجهزة التحكُم عن بُعد ومِن ثَمَ الثالث هو إلقائهما بسلة للمهملات -أسطوانية الشكل فضية اللون ربما لا تحمل شيئًا سوى سر غريب الأطوار هذا- بصالة الاستقبال وتركهما والمغادرة مجددًا تجاه المِصعَد الموجه لغرفته، كل ذلك أثار شكوك عبد السلام بأمر من لم يتكلم مع أحدهم منذ قدومه ولم غرفته تلك التي كادت أن تحترق منذ ساعتين -تقريبًا- ولِمَ قد يحمل بعض بطاريات ومن

ثَمَ يلقيها هي وأجهزتها بسلة قمامة؟

ما أن غادر الأخير، حتى تحرك عبد السلام -تاركًا زميله محمد عبد الله يتآكل عقله بعد أن ألهاه بتلك الأسئلة- تجاه سلة المهملات تلك يخرج ما لفظه المريب ذاك يتفحصه ليُسكِت خفقان الشك والريبة بصدره المُرتجل لعدة سيناريوهات لم تحدث ولا وجود لمقدمات لها سوى برأس عبد السلام وحده فقط.

أخرج على مَضدٍ منها جهازين للتَحَكُم عن بعد ملتصقين بلاصق شفاف اللون شديد الالتصاق عصيب الحل والإزالة، أجهزة مُلئت بحُبيبات كالرمل سوداء صغيرة متناثرة بكافة أرجاء الجهازين، لها ملمس خَشِن ورائحة مغايرة عن أي شيء قد تذوقه أنفه من قبل تلتصق بها ثلاثة أسلاك كهربائية شديدة القِصَر ونهايتها مخبأة داخل عُلبة عليها شريحة هاتف محمول قديمة شاحبة اللون غير ظاهر لها أي تفاصيل، وما أن رآها حتى حملها بين يديه ليضعها بين يدي مسؤول الأمن بالفندق نبيل سلامة، كي يدقق عما بها ويبحث عن ذاك النزيل.

الساعة الثانية بعد ظهر اليوم.

عادت السحب الرمادية القاتمة البارزة من النوافذ الزجاجية لصالة الاستقبال تنغلق على نفسها مجددًا لتزيد من اكتئاب خالد المصري ذاك الذي لطالما كره الشتاء -ليس فقط لوهن بدنه به- إنما لذكرياته السيئة المزرية معه، فمتى قُتل أصدقائه ومتى اغتيل شبابه بعز ريعانه؟ ومن قبل أن يحدث كل هذا، والداه اللذان توفيا شتاءً، لم يكره هذا الفصل الصامت من فراغ وإنما يومًا بعد يوم تزداد كراهيته له، ويزداد الشتاء بعصيانه أكثر بأكثر حتى يأتي عليه بما لم يتخيله يومًا.

صامت والكل من حوله -بالنسبة لأذنه- هامسون، غير عابئ بهم ولا يهمه أمر أحد منهم، عيناه لا تكادان ترتكزان على أي نقطة، إنما تتجولان

مُتفحصتان ذرات التراب المنثورة على الأرض رغم شدة مقاومتها، أيما ذرة متواجدة بصالة الاستقبال، فلا بد له من فحصها بعينيه، متوتر! لم يكن يومًا هكذا ولا يدري ما حل به جديد! سوى خبر واحد فقط!

شاشات العرض ذات الخمس وأربعين إنشًا تعرض عدة أخبار من بضع قنوات خُصصت -عن عمد- لنقل الأخبار الطارئة التي لا تحتمل أي تأجيل، أحداها حَمَل ما شق صدره وقَسَم ظهره، ربما قد ابتاع تلك المخدرات التي أتى بها من خارج البناية سلفًا كي تكون له عونًا ومخدِرًا -بمعنى الكلمة- عما يراه ويعيشه يوميًا، حتى أتت تلك الأنباء فهمست له نَفسُهُ بالسوء أن لا مخدر قد يفوق ما يريد تخديره، لا شيء قد يُسكِن آلامه التي عادت كي تَبرُزُ مجددًا بعد أن حاول تناسيها لسنوات، اليوم لا بد لك أن تُنهي كل هذا وتُنسى كأن لم تكن، ظن أن السنين قد تنهي أنين صدره حتى سمع تلك المُحاورة بالتلفاز تناقش أحد ضيوفها عما إذا كان إزالة مقرر -قد لا يبدو بالهيّن- مما يُدرَس لطلبة المرحلة الابتدائية عن أحداث الثورة وما أثار ذلك على تاريخ الأمة لاحقًا؟!

سَمِع كُل حديثها المُنمق المُعد سلفًا كي يجذب إليه الآلاف بل الملايين ممن يبحثون عن الطمأنينة، ممن يريدون أن يجدوا مَنْ يُعظم أحاديث أنفسهم إليهم أن لا شيء يدعى ثورة هُنا، لا شيء قد تغير وأن مجرد التفكير بالتغيير خطأ بحد ذاته، ساد صمته أكثر فأكثر حتى أكملت نفسه -اليائسة المُنهكة- حديثها معه، ماذا تنتظر أن يحدث بعد كل ذلك؟ أضعت سنوات من عمرك قد تكون هي الأجمل في سبيل لا شيء؟! أو لنكن منصفين بعض الشيء، أضعت بضع سنوات من عمرك لتنير طريق أناس ما إن أدرت ظهرك إليهم حتى انهالوا عليك بكل ما رفضته أنت عليهم؟! أنسيت أم تناسيت كل لحظة خُذلت بها وصممت أكثر إن لا شيء قد يوقف الحُلم والأمل، والآن أين حُلمك وأملك؟ لا أحد قد يعرف حتى عنهما بعد سنة واحدة من الآن ليس بعد مائة سنة، ظللت تُجهد روحك الشابة حتى أجهضتُ ما تبقى لك منها في سبيل أن تعش بعد ذلك أعوام مديدة تمنيتها منذ لحظات إدراكك الأولى،

والآن على ماذا حصلت؟ سنوات عجاف قاتمة يحسبها الجاهل نصرًا له وعلى أي شيء؟! عليك أنت؟!

أنت لا تستحق كُل هذا ولا تستحق كذلك أن تجد نفسك بعد كُل ذلك منثورًا مُبعثرًا بالحياة من جديد كي تجد ما يستر عورات مَعِدتك، أنهي كُل شيء الآن! على الأقل سيظل تاريخك السالف نقيًا غير ملوثٍ، فإن أتى يوم على الناس انتصرت فيه مبادئك الخضراء المثالية، ستكون واحدًا من الرواد القادة، وإن فشلت فلن تكون ممن يحكى عنهم يومًا إن الحياة قد نالت منهم وغيرت ما حلموا به يومًا وآمنوا به واعتنقوه، أنت لم تُخلق لتلك الحياة اليائسة، أنهها الآن، فإن لم تجد ما تمنيته بالدنيا فلا تقدم أي تنازل قد تندم وتتحسر يومًا أنك قدمته، ضع حدًا لكل ما يجوب صدرك ويشقه ويشقيه، أنهي أمرك.

قاطع حديث نفسه إليه صوت ارتطام بدن صابرين الهزيل بالأرض، كأنها نيزكٌ آتٍ من العدم ليصدم الأرض الكروية كي تكون تلك النهاية للكُل، اصطدمت الأخيرة دون سابق إنذار، دون أن يدري أحدهم بشأنها أو بقرب انهيار بدنها بداية من الطوابق العلوية لجسدها، بدايةٌ برأسها التي انهالت على الأرض كأنما زلزال قد ضرب الأرض من تحتها فما عادت قادرة على الثبات أكثر من هذا، الكُل صامتون يشاهدون لا أكثر، الجَمع وَاقفون مُتحفزون ليعوا مما سقطت، لا أحد يدري ما قد يفعلونه ويفيدها بتلك الحالة، لا يظهر بها أي أثر لدماء أو أي عَرضُ مُميت، فقط جسد تهاوى كأنما ريش طائر يسقط من ارتفاع آلاف الأقدام للأرض وحُقنة فارغة!

لم تمتلك حتى ثمنًا لمخدرٍ ما تحقن بها وريدها فتنفصل عن العالم وعقلها لا يُدرك شيئًا بل لعله يكون بسعادة وهدوء، إنما مُلئت تلك الحُقنة بالهواء، ليس لأنه أرخص ثمنًا ولا أكثرُ وفره، إنما لأنه أكثرُ سُمية، هواءٌ لم يمنحها رحمة في ذاك العالم، استعصى عليه مَد يد العون لصغيرها بأن يبقيها على قيد الحياة دون أية مناوشات من بني جنسها، هواء عُبئ بكل ما لفظه المجتمع

من سموم فتاكة تقتل الإنسان البالغ بثوانٍ دون أي مقاومة منه، سقطت بلا نهوض مجددًا، ذهبت من الدنيا كالرياح، حتى وإن اشتدت فشدتها خير مقابل دنيا طالما أتت بريحها على أم رأسها دون شفقة، قَتلت نفسها أم قَتلها الكُل؟! وتحديدًا شريف أبو السعود حينما خيرها بين حياةٌ ملطخة بعارٍ غير قابل للزوال أو نهاية تتنحى بها عن كُل شيء في سبيل عَصمُ صغيرهاً من وصمة قد يوصمُ بها بلا ذنبٍ.

بدنُها مُلقى على الأرض مُمدد، يداها وقدماها متباعدتان عن بعضهما البعض، كأنها صُلبت على الأرض ثم انهار الصليب بها إلى الأرض، الكل من حولها ملتف بشكل دائري لم يتخذوا قرارًا بعد، لم يقدروا حتى على التفكير، فما يدفع فتاة بالتاسعة والعشرين من عمرها أن تحقن نفسها بسُم غير مرئي؟! البعض حاول الاستناد إلى أنها ضعيفة الإيمان لذا هيئت لها نَفسها الانتحار بهيئة الخلاص الأبدي، والبعض حاول أن يكون من ذوي الأفئدة النابضة فسلكوا مَسلكِ العذاب الذي ربما قد مَسها فما استطاعت أن تظاهر عليه بأسها فاشتد بؤسها حتى نال من روحها، لكن الكُل أجمع على جواز الرَحمة عليها وعلى صغيرها الذي ربما سيعي قريبًا معنى أن يفقد الشخص الوحيد المُتبقي له على وجه البسيطة.

لم يتحرك ذهن أحد سوى من يدري كُل شيء عن كل شخص، إنه يعلم السر وتخفيه الصدور، ككل بني شعبه، يعلمون كل شيء ويدركون كل شيء، لكن صامتون ولا أحد يعرف أصامتون خوفًا أم قلة حيلة أم استهزاءً بأنهم يعلمون الحقيقة وتاركون الطرف الآخر يمارس فنون أكاذيبه فقط ليعلموه بقدرتهم على الاستمتاع بكذباته غير المحترفة، لا أحد يعرف، هو بذاته لا يعلم!

محمد عبد الله، عامل الأمن، الذي يشترك -حتى- باسمه مع نصف المجتمع -على الأقل- يُدرك بعضًا من الحقيقة، لكن البعض الآخر لا زال مطويًا بتلك الورقة الصغيرة التي أعارتها له صابرين كي يستر بها سُمعتها إن تغنى أحدٌ بها

يومًا ما، من بعيد والناس من حول الأخيرة ملتفون، راقب كُل شيء، عَلم أنها هي التي أثارت اللغط والحيرة بنفوس من تركوها تسبح بعالمٍ لا نعرف عنه شيئًا في حين انشغلوا هم بالحكم عليها، لكن ما دعاه للسخرية منها، ليس المشهد المُنصرم، إنما ضعف عقولهم فأنا أن يُصدروا أحكامًا -نافذة- برأيهم وهم بذاتهم لا يعرفون ما سيكون حكمهم.

لم يُحرك ساكنًا ولم يترك كُرسيه الذي لم يتركه طيلة ما يزيد عن ستين عامًا، جالسٌ يراقب ويشاهد فقط لا يشارك ولا يقدم حلًا من قريب ولا من بعيد سوى المتابعةُ عن بُعد، وما له من متابعة وضع صابرين إلا من تلك الورقة الصغيرة المؤتمنُ عليها براحة يده، أزال عنها الثنايات والطَوي الذي أصابها لمئات المرات، حتى يجد من آمنته على سرها تاركةُ له خطاب، كُتب بخطٍ مُنمق دليلًا على ثبات سلوكها وقت اتخاذ القرار، لم تتردد ولم تخف ولم ترتعش يداها ولو لثوان، إنما ثَبُتت واستقر عقلُها على فِعلتِها.

«بُنيّ! أعلم أنني قد تغيرت كثيرًا منذ أن بدأتُ عملي ها هنا، لكن كلماتي تلك إليك حتى لا تصل إلى ما أنا عليه الآن، صِرتُ تائهة وسط كثير من الأفكار، محاطةٌ بزوايا وهمية صنعتها بيدي لأتجنب من كنت أحسبه ضررًا، فـصرت الآن غير قادرة على مفارقة الزوايا ولا حتى التوقف عن كوني الضرر بعينه، لطالما فَكرتُ بالاستغناء عن كُل شيء إلاك! لكن بعد أن رحل أبوك إلى بارئه صِرتُ أنا كُل شيء تحوذه أنت، لا أدري إن كان تفكيري هذا صحيحًا أم لا، لكن امتلاك نصف الشيء لا يعني امتلاكه، وأنا الآن لست سوى نِصف أُم، بنصفُ صَحَة، بنِصفُ حُسن سُمعة، خائفة من أن تلك الأنصاف قد تأتي يومًا على أُم رأسك، فكرتُ كثيرًا وكل ما توصلت إليه هو ألا تكون بدون أُم لعله يكون أفضل وأيسر من كونك تُنسب لأحدٍ ساءت سُمعته بلا أدني تحرُكٍ منه ولا رغبة، وددت لو أبقى معك بالطريقة التي تتمناها لكن الاختيار لم يكن أبدًا بتلك السهولة، وبذات الوقت أن أُكمل حياتي هذه بتلك الوضعية التي طُلبت مني أعسر عليّ و-مستقبلًا- عليك.

أتمنى فقط أن تغفر لي -بعد حين- فعلتي تلك، وتجد لي مُبررات أكثر عما أقوم به الآن، أريد منك أن تعرف أني اخترتُ ألا أكُمل حياتي لتبدأ أنت حياتك، ليس فقط الآن، إنما من بداية قِصتُنا معًا، أريدك فقط أن تعي أن كل ما يمكنك أن تغيره في الكون هو ألا تدع الكون يغير طبيعتك الملائكية التي فطرت عليها، مهما حل بك أو نالت منك الدنيا ومصاعبها لا تتغير أو تقرر أن تُنهي مبادئك بيديك، فلا أحد بهذا الكون يستحق أن تتبدل له، أريدك ألا تثق بأحد حتى وإن بلغت كلماته حد السماء، فأحفاد آدم كلهم سواء، ستتعاهدون على أن تبقوا سويًا ما دامت الحياة، تتناقلون كلمات عذبة فيما بينكم، قد تخلطون أوجاعكم قبل سروركم وتتناوبون الاقتراب من بعضكم البعض وتوارون الآلام عن بعضكم، لكن يومًا ما ستعيش وحدك، لن يعرفك أحد ولن تقدر حتى على أن تعرف أنت، ليس بالضرورة أن يكون ذلك بمدينة جديدة أو بلد أجنبي، يومًا ما ستعيش وحدك داخل نفسك، ترى العالم يأتيك ويُدبر عنك وأنت ثابت كجذع نخلة غير عابئ بأي تغير حولك، لا فرق بين ليل سرمدي ونهار مُشمس، كُلهمُ سيان، تأكل وتشرب وتنام وتقضي حاجتك وتُفرغ طاقتك الجنسية بغير هدف، هي عادات ورثتها، لا تعرف أهي حقًا ضرورية للعيش أم أنك تُنفذها لكي يمر يومك ويأتي غيره، وتكرر أفعالك يومًا تلو الآخر فيمر اليوم تلو الآخر حتى يوم النهاية، يوم تتسأل لما خُلقت وما قدمت وهل سَعِدتُ، سيرحل كُل من تعاهدت معهم على أن تبقوا سويًا ما دامت الحياة، من عاهدوك على ألا تفترقا إلا بموت أحدكما وأن ذاك الفراق حتى لن يدوم طويلًا، فإن انتهت حياة أحدكم فالآخر لن يطيل الفراق -من شدة اشتياقه- وسيأتيك مسرعًا تكملا ما قد بدأتماه سويًا خالدين لا يفرقكما شيء».

***

أنهى محمد عبد الله قراءة الرسالة الأخيرة لصابرين مُحتفظًا لنفسه بسرها، وبما كان يُكنه لها شريف السعود وعلام أبكاها وأذل نَفسَها البِكر، نوى إبلاغ من بيده التصرف بأمر الأخير، لكن بِما سيدان؟ لا دليل على اتهامه، بل ربما

سيلقى هو اتهام متبادل بأنه هو من دفعها للانتحار إن لم يقتلها حقًا!

أعاد طي الورقة من جديد ووضعها بجيبهِ، وظل يرمق كُل من أحاط زميلته بعين الأسى تارة وبعين الحَنق تارة أخرى، فأما الأسى لأنها أفاضت روحها لخالقها دون أن تُدريهم أي سبب لِمَ قامت به، فتركتهم يلومونها على أشياء لم تكن تنوي أن تقوم بها أو حتى تعرفها، والحنق لأنهم فرضوا عليها وصايتهم وحكمهم النهائي الذي لا استئناف فيه أو معارضة، هم أقروا أنها ستقبع بالجحيم الأبدي عقب يوم هم لا يعرفون ميقاته ولا يعرفون ما سيلاقونه به، ولا يعرفون من الأساس أسيرافقونها بذات الجحيم أم سيذهبون بعكس اتجاهها، ومع ذلك أقروا إقرارًا واضحًا بموضعها المُستقبلي، حنقٌ تبلور بلا فعل، بالثبات والتحديق بهم دون القيام بأي شيء، هُم لن يقدموا شيئًا أو يأخروا ولن يغيروا وجهة نظرهم ولو بعد مائة عام، وعنها فهي ماتت وانتهى الأمر، أيضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟!

حاول تبرير كُل ذلك لنفسه المُتكاسلة السلبية المعروفة بالتخاذل والسكون لعدم إبداء أي ردةُ فعل، تارة تخبره نَفسُهُ أن ذلك هو الواجب فعله ولا فائدة من التحرك والدخول بجدال لن يفيض إلى نقاشٍ أو تغيير بآرائهم!

وتارة أخرى تُحدثهُ فطرته إن انبطاحه هذا سيأتي عليه يومًا ما ولن يكون هنالك مجال للندم أو التراجع، حينما ينهال القدر على أحدهم واضعًا إياه بذات موضع صابرين، أو ربما هو بشخصهِ سيكون بموضعها وسيتمنى لو أن يجد من يُنصفَه.

ظل التراشق بالأفكار بين نَفسهُ وفطرته قائم ومُستعر غير قابل للانحسار والحل، حربٌ ضَروس عاتية، لا طاقة لأعتى قادة العالم بها، وما لها أن تنفك إلا أن يتخذ مالكُ أرض المعركة قرارهُ، كان ممن وُضِعَ الحظ لهم بمكان السحاب، فبات يظلهم من أعلى رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، كان حظًا له شؤمًا على غيره، تحديدًا خالد المَصري الذي نَوى هو الآخر أن يتخذ قرارًا بشأن حياته مُنهيًا صراع دام لسنوات بين أن يُكمل على حالته شريدًا بين

أبناء جِلدته وبين أن يُنهي أزمتهِ بنهايةٌ أبدية لا رجوع منها، قَدِمَ على ما لم يظنه به أحد ولم يحسبه أن يأتيه، أيُعقل أن ذاك المُثقف الجامعي ذا النسب الكريم والخُلق الرفيع أن يأتي بفعلهِ كهذه؟!

ينتحر بجُرعة زائدة من المُخدرات؟!

وأين؟! أمام الكُل، مراقبٌ ببضع كاميرات ورجلا أمنٍ على الأقل، وسط البهو الأمامي والرئيسي للفُندق!

ربما لم يعُد يكترث أكثر بما يدور حوله، هو فقط ينوي التخلُص مما غَلف قلبه وأشابه بصدأ.

رآه مُحمد عبد الله من أبعدُ زاوية يلتوى سريعًا بعدة اتجاهات كثُعبان حُرمَ من الافتراس لأيام وها قد رأى فأرًا صغيرًا يبعثر الثَرى بقدميه، ثوانٍ وكان جسدهُ مطروح أرضًا وبجوارهِ عشرات الأقراص المُخدرة التي لم يُسعفه الوقت لابتلاعها على الرغم من ابتلاع عشراتٍ أخرى من مثيلاتُها، جُرعةٌ زائدةٌ لم تُظهرُ أية شواهد على أن الشخص الجالس بشكلٍ طبيعي دون أي آلامٍ أو شكوى بعد بضعة دقائق سيكون بعداد الموتى أو على الأقل على قوائم الانتظار الذي لن يدوم إلا لدقائق معدودة، لم يُصدقاه الاثنان محمد عبد الله ونبيل سلامة حينما أخبرهما أن ما تحتويه حقيبته القادم بها من الخارج مخدراتٍ ذات مفعولٍ حاد يقتُل بدقائق إن زادت الجرعة عما هو مطلوب، لم يُصدقا استغاثته حينما كان يدعي الكِبر وإنه ليس بحاجة لمساعدة أحدهم، بينما كانت عيناه تدعوهما ألا تتركاني لنفسي تصنعُ بي ما تريد، ستفعل ما لم أُرد أنا يومًا، ستقضي عليّ، رجاءً أغيثاني! أنا مررت بالكثير وتحاملتُ على نفسي لكن حتى الآن لا فائدة تُذكر، لا تتركوني وحدي هنا مع نفسي، هي أشد خطرًا عليّ من أي شخص آخر!

لم يعلما شيئًا عما دار بعقله بتلك اللحظات، مئات الأفكار صالت وجالت رأسيًا وأفقيًا بأم رأسه، حتى تحصنت نَفسهُ الأمرة بالسوء بحِصنُ عقلهُ والأفكار الجائلة به وانهالت على روحه الضعيفة بكل ما أوتيت من قوة لتُزهقها

وتُنهي أمر ما تبقى منها، ابتلع عشرات من تلك الحبوب المُخدرة دفعة واحدة كأن أحدًا ينوي الإمساك به ومصادرة ما يحوي، فسارع وخبأها كُلها مرةٌ واحدة بمعدته التي لم تتقبل هذا الكم المبالغ فيه من الأقراص فصارت تضيق الخناق على نفسها وتتقلص حتى إذا ما لم يعد هنالك مكانًا زائد لأي ألمٌ بها، طردت كل الآلام المُتبقة للقلب والمُخ والأعصاب كي يستوعبا تلك الكمية المهولة والتي لم يتمكنا من السيطرة عليها كذلك، فانهارت الأعصاب ولم تعد قادرة على حمل جسده الممتلئ سلفًا، وشَردَ القلب فصارت دقاته بين الحين والآخر تتسارع ثانية وتتباطأ ثانية أخرى، حتى إذا ما وصلت الآلام للمخ فلم يقدر على أن يستوعبها فأصدر أوامره بتوقف بضع أجهزة واحد تلو الآخر حتى انهار جسده رويدًا رويدًا دون أي سيطرة منه أو تحكم، حتى إذا ما سقط أرضًا وبدأ نبض قلبه بالاضطراب وعدم الثبات لم يمر إلا ثوانٍ وقد وصل للتوقف المفاجئ والناس من حوله ينظرون أنىَّ لهم أن يفعلوا بجثتين متتابعتين بذات البقعة الضيقة، واحدة قد فارقت الحياة والأخرى – ربما- تَسلكُ الآن ذات الطريق، ليس هنالك سوى الاتصال بالمُسعفين ليبحثوا معهم إن كانت أرواحهم لا زالت تائهة هنالك داخل أبدانهم لعلهم يثبتوها ويجدوا لها استقرارًا، قد يعيدون به اثنين للحياة من جديد.

في سبيل أن يجدوا أي شيء قد يَدُل على هويتيهما أو رقمٌ هنا أو هنالك لأقربائهما، ظلوا يبحثوا ويبعثروا ملابسهم الرثة علهم يجدوا ضالتهم بهاتفٍ نقال أو ورقة هنا أو هنالك، ومحمد عبد الله لا يزال هنالك على البوابة يراقبهم وهو الذي يعرف كُل شيء عن خالد، لكن حتى الفرصة الثانية التي أتته كي يُبدل من تصرفات نفسهُ رفضها وظل على حالته غير عابئ بأي كارثة تحدثُ أمام عينيه.

ها قد أتت سيارة الإسعاف بدويها الناعق المُنفر عن أي راحة أو إسعاف حقيقي لمن فارقوا الحياة أو على وشك مفارقتها، أتت لترى مَن مِنَ الاثنين الملقيين أرضًا لا تزال روحه تترنح داخل جسده فينعشونها لتستقر مجددًا فيفيق صاحِبُها، فتشوا بجسد صابرين يمينًا ويسارًا، حاولوا ضخ الأكسجين عمدًا وبكل قوة دون أي استئذان من جهازها التنفسي أو رئتيها عبر حيلة

التنفس الاصطناعي تلك، التي ما أفضت إلى أي نتيجة مُطلقًا، أتوا سريعًا يهرولون بأجهزة الصدمات الكَهرُبائية وما كان لها من فائدة تذكر كسابقتها، فاضت روحها منذ دقائق وانتهى ذِكرُها وانتهت معها -بلحظة- كل آمالها وأحلامها بأن تُكمل تعليمها وترى شعاعًا من أملٍ لم تره قط من قبل، انتهت وانتهى معها عملها كخادمة بالمنازل بعد مُدةُ خدمتها الأولى، تساقطت أخر شعرة من رأسها، تلك التي لطالما أبقتها داخل دائرة الأمل، الأمل القاتل لصاحِبهِ، ظلت عدة أشهر تحاول المحافظة على تلك الوحيدة الشريدة بصحراء جف كل شيء بها -تقريبًا- ولم تعد خضراء مُنبتة مزهرة كالسابق، وبذات الوقت مِلَّت من انتظار ولادة إخوة أو أخوات لها يؤازرُنها أمام صور المرآة الصادمة العاتية التي تعصف بكل شيء قد خُيّل سلفًا، صور قد تقتل دون أي قطرة دماء منثورة هنا أو هناك، أو حتى أن يلفظ أحدهم إحدى كلماته المُسببة للاكتئاب، لم تجد أحدًا قد ينصفُها أمام كُل هذا، فاختارت النهاية الرحيمة خيرًا من المثابرة بطريق لن يرضي أحد إن سلكته ولن يرافقها أحد به، هي بذاتها -مُستقبلًا- قد لا تقدر على إكمال الطريق بنفسها، فكيف لها أن تطلب من غيرها أن يرافقها ويؤنس وحشة طريقها خافت الإضاءة كثير التعرجات طويل الأمد؟!

الأهم والأمر من كُل ذلك، إنهائها لأي طلب نخاسة قد يطلبهُ منها رَبُ عملها السيد شريف أو كما يلقبونه بأبو السعود دلالة على إسعاده للغير بأبدان الغير، لن تتحمل كلماته المُسممة الضاربة بقوة بأساس عِرضها، ناهيك عن طلبه مرارًا أن ترتدي بعضًا من خُصلات الشعر المُستعارة، مع وضع كميات هائلة من مساحيق التجميل كي تُداري بها كل أثار من يتعرض له بدنها من اجتياح للمرض وانتكاس لها، لم تتحمل أبدًا كُل هذا، فقط أنهت كُل شيئًا ورحلت، كتلميذ بالصف الابتدائي لا طاقة له بأن يُنهي واجبه المدرسيّ ولا حولٌ له بأن ينتظر طلبات أهله بالاستذكار المُستمر دون أية رحمة منهم، فلا يمر بخاطره شيء سوى ادعاء المرض لإنهاء كل الصراع الدائر حوله وبداخله، ومن ثَمَ ينتظر ليرى ما سيحدث بعد ذلك.

ماتت صابرين.

أعلنوها على الملأ بصالة الاستقبال أن ليس هنالك مجال لأن يغادر أحد ما تلك البناية حتى يعي رجال الشرطة بما حدث، لعل هنالك جريمة قتل ولا أحد يدري، فليس هناك -لأحد- مبارحة للمكان أو ولوج لغريب.

وما أن واروا جسد صابرين الهزيل -سلفًا بفعل السرطان- بقطعة قُماشٍ بيضاء اللون حتى يتفحصها بعناية خُبراء الفحص الجنائي، حتى أتى الدور على خالد المصري الذي حاول كالأولى إزهاق روحه وإنهاء أمره بيده، قلبوه بين أيديهم كما تتقلب الشاه منزوعة الرأس على لهيب الشواء، حتى تدلى من بنطاله هاتف نقال صغير الحجم لا يكاد يتعدى مساحة كف رجُل بالغ، تُرِكَ مفتوحًا على تطبيقًا لتسجيل الصوت، كُل ما وُجد هو ملفٌ صوتي واحد لا عنوان له، إنما تُرك باسم «بلا اسم»، ولم يعرف أحدٌ أكان يقصد ألا يسميه كدليل على عدم اكتراثهِ بشيء بعد الآن أم أن الجُرعات الزائدة لم تُمهله كي يُسجل ما حفظه بصوته لتوه، لامسوا أزرار الهاتف النقال لتبدأ رسالته التي حفظها بصوتٍ خافت يظهر خوفه وانهزامه من ترددات صوته، صوته البطيء الساكن، قليل الشغف والحماس أعلن عن كُل شيء بادر هو بكتمانه، ما أن ضغطوا على زِر التشغيل حتى بدأت رسالته الأخير الموجهة سلفًا لشقيقته الوحيدة:

«حبيبتي، أكاد أرى مقلتي عينيكِ يتسعان منذ اللحظة الأولى التي يخبرونك فيها بما فعلته بجسدي المتهالك من ذي قبل، أمضيت هنا بضع أيامٍ كي أُقدمُ لكِ تدريبًا عمليًا على اختفائي الدائم كيلا يضيق الضجر أنفاسك وتتفادين -قدر المستطاع- هول الصدمة.

أود فقط أن أعتذر منكِ على تركك بهذا العالم وحيدة، لكن هنالك دومًا من سَيُلبي نداءاتك حتى لو لم يتجسد لكِ بأي شكل أو هيئة عرفتيها -أو ستعرفينها- يومًا، لكن أتمنى لو أن تصدقينني أن الأمر كان أعسر عليّ من أن أتخطاه.

لم أجد شيئًا أقسى من أن أغترب بوطني، أن أصبح معزولًا عن الكُل، بينما الكُل أولئك هم أنساب دمي وأصهاري، لطالما تملكني إحساس أني وحيد أمشي باتجاه في حين أن باقي أبناء جلدتي يهرولون بالاتجاه المُعاكس ولا يرون أية مشكلة بدهسي ودعس وجهي الطفولي بنعال أحذيتهم غير عابئين بما أحمله بقلبي أو أكنُهُ لهم!»

تحشرج صوته قليلًا واندفع سعاله خارج حنجرته وبدا على صوته التردد بما لم يُرِد له أن يبرح لسانُهُ إلا أن ما خبأه كان أقوى من أن يواريه لحم لسانه ثم عاد مجددًا يُطلق عنان فيّه:

«ربما سوف تسألينني كيف تماسكت كل تلك المُدة ولماذا؟!

لكن دعيني أخبرك لماذا أولًا، لم أرد أن أنقض أخر جدار تركه والداكِ لك، لم أُرد أن ترينني محطمًا مذلولًا أمامك، أردت أن ترينني كمنقذٌ لكِ وقتما أردتِ المساعدة، أما عن كيف، فأنا أضعف بكثير مما تعتقدين، أنا هشٌ، سهل الانكسار، أهون من وريقات أشجار تساقط منذ الخريف الماضي، قد تحسبينني -حين أحادثُكِ- زعيمًا مفوهًا أو رمزًا بارزًا، وقد تتساءلين كيف لي أن أكون هكذا بعمر مثل عُمُري! لكنها فقط القدرة على إخفاء الحقائق ليس أكثر.

هناك شيء ما بداخلي يُخبرني أني لم أعد مِثلُ مَن عُرِفوا بالشباب، لستُ واحدًا منهم -على الأقل هيئة- أنا لم أعد ذاك الشاب الصغير اليافع، ذاك الذي فقد رفاهية الرقص في الأماكن العامة، الركض في الطرُقات، مواعدة الحسناوات.

لعليّ بعد عدة محاولات فاشلة للتعايش وسطهم قد فطنت العلة، هم لا يتقبلونني -بسهولة- بينهم ولا أمتزج بينهم إلا بعد عناء ومحاولات شاقة للتأقلم، دومًا يهابونني منذ اللحظات الأولى نظرًا لاختلاف ملامحي عنهم، ثم تنهال عليهم رصاصات الدهشة حينما تُغتال توقعاتهم بأني بذات عُمُرهم.

هيئتي التي تغيرت بفعل السنين الضنكَ التي تجرعتُ بها كُل آلام الفقد

والحسرة على خساراتي، كلماتي التي شربت حتى ثَمِلت من معاجم الآلام والوحدة، ثيابي التي صارت كشباك الأسماك ضخمة تضم مئات الكيلوجرامات بعد الأدوية، حتى أحلامي تكبُرهم، تتخطى حواجزهم العُمرية.

لطالما حاولت الإبقاء على كثير منهم، لكن من بقي قليل، صِرتُ أدور بدوائر مفرغة تمامًا، يرمقونني بنظراتهم من بعيد، يستعجبون لحالي، نتعارف، نصير أصدقاء، ثم...

لا أعرف تحديدًا ما التالي، أوقات لا أقدر على التمثيل أكثر أني منهم، وأوقات أخرى يملون مني حينما يعرفون سبب ما حل بي ولِمَ قد أظهر بذاك المظهر الكاهِل.

للأسف لم يُحبني العالم كما أردت، ولم أقدر على تَقبُلهِ كما أراد هو، لكن ما فطر قلبي حقًا ودفع صوتي للإفصاح عما خبأته طيلة تلك السنوات، فشلي وتشتتي طوال سنوات عدة، أنا بداخلي ثورة تائهة، منهوبة، نال الغباء من قوادها، ثورة ظاهرها سِلميّة بيضاء تُرفع لها القبعة من هول ثباتها، في حين أنها تتناثر مُشتتة كحمم البراكين لأول شخص قد يقترب منها، ثورة لامست مطالبها عنان السماء، وبذات الوقت توشك على الهزيمة أمام أصغر جُندي لا قِبل له بالوقوف أمامها، مُرغم على دحرها، لا يعرف لها معنى ولا فائدة، أنا -للأسف- بصدري أعظم ثورةً -قاربت على الفشل- بالتاريخ.

أُختي البتول، أتمنى أن تغفري لي ما تقدم مني وما تأخر، ولتعلمي أني دومًا سأظل بجوارك داعمًا لكِ بأي وقت وبأي أوان، سأكون لكِ حق مؤازر وخير جمهور، بعدد كل من قُتل بحربٍ خُدعَ بحقيقتها، لن أغفل عنكِ ولن تختلط عليّ أمورك بعد الآن، فحتى وإنْ سِرتِ بأول قافلة وأتت روحي تتفقدها من آخرها فسأشتم عطرُك، حتى وإن أنشدتِ وسط آلاف المُنشدين سأتعرف على صوتك.

حتى أن ألقاك مجددًا، أخاك خالد».

حاملًا بكِلتا يديه المُرتعشتين جهاز التحكم عن بعد، كان كعارض أزياء -يعرض مفاتنه التي ظل سنواتٍ يعمل عليها ليبرزها- يتبختر في مشيه، والكل من حوله غير مُنتبه له، حيث صبوا اهتمامهم صبًا على الضحيتين المُلقتين على الأرض، والشحوب يملأ وجوهم العابسة، تزيد من سوئها نبذهم للموت المتجسد أمامهم.

يحمل بصدره كُل تناقض العالم، إقدامه وإدباره، شجاعته وخوفه، شفائه، ومرضه، قلبه كاد من فرط التردد أن ينفجر بصدره، ظل مقدار نبضه يعلو كأنه مُحرك لدفع الشاحنات العملاقة، وليس لإبقاء شاب ببداية العشرينات من عمره على قيد الحياة ليس أكثر.

تنقل من منطقة لأخرى بردهة الاستقبال، يرمق الناس أولًا بأسى نابع من فطرته، ثم تأتيه نفسه من حيث لا يدري فيتغير وجهه فينصب على ملامحه العبوس والكُره، يعرف أن هناك من ليس لهم من الدنيا بشيء ولا لهم بها مطمع سوى الخروج منها هم وأهاليهم سالمون، يدعون إلى الموت فيقبلون عليه، غير مذنبين ولا خطائين.

حتى وصل إلى إحدى المرايا العاكسة لصورته الخائفة المُرتعدة ويديه المُرتجفتين، وهيئته الهشة أمام أي مفاجأة قد تصيب خطته بمقتل، ينظر شِمالهُ ومن ثم ترتد مُقلتاه للمرآة مجددًا، يعاود النظر على جهاز التحكم عن بعد ويعود لينظر لنفسه بالمرآة، لا يكاد يصدق نفسه، بكل تأكيد هو ليس ذاك الشخص منذ عشر سنوات، بُهِتَ فيه وانحسرت الكلمات عنه، إلا قلبه، الذي ذاع صوته داخل أرجاء جسده محدثًا إياه بما لم يسمعه أحدٌ غيره، كلمات ما كان لها أن تخرج يومًا، لم تخرج قهرًا ولن يُعرف عنها شيءٌ خوفًا، انقطع الصوت من حوله، لا صوتٌ سوى دقات قلبه، قوية، شديدة الصدى، لا تلتقط أذناه سواها وبين الحين والآخر صوت انسياب لعابه بحلقه البور الظمئ، رفع رأسه بالمرآة مجددًا، لا يسعه أن يصدق أنه يتحكم بمصير مئات، استند بكلتا يديه على المرآة مائلًا نحوها مذللًا رأسه للأسفل متسائلًا:

«أيعقل؟ أنا؟ سأكون واحدًا ممن كرهتهم لسنين؟ أنا؟ أسوف أكون الفاعل ليس الضحية؟ وأكون سببًا لحزنُ أناس لسنوات مثلي؟ هنالك من سيثأر مثلي ويقتل آخرين ونظل بدائرة مفرغة؟ هنالك أناس لا ذنب لهم... لكن...»

رفع إحدى يديه المتكئتين على المرآة وأخرج صورة أمه من جيب بنطاله، ظل يحدق بها ومقلتاه تجوبان أرجاء وجه أمهِ، فار الدمع من عينه وعاد وجهه للمرآة مجددًا ولكن تلك المرة بدموع فاضت عن حد احتمال عينيه فغزت وجنتيه فعاد متسائلًا مجددًا:

«لكن ما ذنبها هي الأخرى؟ ألم تكن بريئة كذلك؟ ألم تكن تريد العيش بأمان بعيدًا عن كل هذا وهم من أقحموها بكل ذلك؟

ألم تحلم يومًا أن ترى طفلها الوحيد ينشأ نشأة حسنة بعيدًا عن كل مطامعهم؟ هي كانت سيدة طيبة جميلة ومسالمة، ما ذنبها؟

كانت لا تعرف شيئًا بالعالم سوى ابنها، مُصحفها، حجابها وإذاعة القرآن الكريم، لم قرروا فجأة أن يروها مُذنبة؟

كانت فقط تهدف لرؤيتي بإحدى كُليات القِمة، لكنها كانت مخطئة! حيث أنها لم تخطط جيدًا لتُنشئني لأكون ممن هم فوق كُليات القمة تلك، لم تخطط جديًا ولم تكن ممن باعوا أنفسهم لكي يصلوا لما تمنوه.

بأي ذنب يقتلوها أمام طفلها؟ لم نحن فقط علينا أن نعاني ونقاسي؟ لم نحن فقط علينا أن نُيتم ونرى أهلينا يُقتلوا أمام أعيننا ولا نقدر على فعل شيء لهم، أو نسترد قطرة من دمائهم؟ لم نحن؟ نُقتلُ بدمٍ بارد ولا يأبه أحد بنا، لا أحد يرانا ولا أحد يعرف عنّا، وحتى إن كُتب عنا ببعض الصحف! باليوم التالي سنكون مجرد حشوٍ للأحذية كي تعرض جيدًا أو مروحة لغير ميسوري الحال أو قِرطاسٍ لأطعمةٍ البعض، نحن لا شيء، لا أحد يهتم بلا شيء مثلنا، لا أحد يتذكر كَم قطرة ماء أهدرها وقت غسيل وجهه، لا أحد يتذكر نوع ورق الشجر الذي دهسه بقدميه، لأنها بضع أشياء ومتاحة بأعداد لا حصر لها، كذلك نحن، من قد يهتم بأناس لهم ملايين النسخ، لا أحد يهتم بنا على

أي حال.

لكن من أذاق الألم لا بد له أن يتجرعه حسراتٍ مضاعفة، فأمي لم تكن يومًا ذات ذنب كي يجروها كما تُجر البهائم، ولا كان يليق بمسالمة مِثلُها أن تُهان وتُمتهن لأن لها ولدًا اتُهمَ سلفًا -دون دليل- وهّربَ خوفًا!

لم يكن لها أن تُساق إلى مَحبسها وتدفع إليه دفعًا حتى يتم إرغام ابنها على الإتيان بنفسه وإلا فأمه مباحة، ما ذنبها أن تُقتل ليس تعذيبًا إنما قهرًا على حالها وحال أبنائها الذين يُتموا من الأم وهي حيةٌ ترزقُ من ربها، بعد أن حُرِموا من أباهم أيضًا؟

لكن الوضع اليوم قد غُيّر وعلى الباغي تدور الدوائر، واليوم سنُقيد أسمائهم مع الذين سبقوهم من الدنيا، وكذلك يُرد الحق وإلا فلا!

طمأنته نفسه بما حدثته به وأغفلت قلبه عن وصايا من يدافع عن حقها بالغُلوّ، بألا يدع عقله يقتلع فؤاده من موضعه وأن يعرف أي وقتٍ يترك كُل منهما يعمل ولا شأن للآخر بالتدخل!

لم يحتج لأكثر من عدة أجهزة تحكم عن بعد أو بالأحرى البطاريات بداخلها، التي من الأساس متواجدة بالفندق ولا حاجة له لأن يشترها ويُدخلها من الخارج فيثير الشكوك حوله ولو بسؤال واحد لماذا أتى بكل تلك البطاريات، أما وإن أدخلها فالنص الثاني رُبما قد يكون أصعب قليلًا، فالبطاريات التي إن وُصِلت ببضع ذرات البارود التي أدخلها معه بحقيبة يداه داخل أنبوب صغير على أنه إحدى التوابل التي أتى بها خصيصًا من الهند لمعالجة كَبِدهِ لم يكن ليثير الريبة حوله خصوصًا وأن ذاك الأنبوب حُوِطَ ببضع أنابيب أخرى اختلط بها المَلح بالفُلفُل بعدة توابل أخرى، فالأمر هنا طبيعي لأقصى درجة، أما عن استخدامه فتوصيل البطاريات بقصاصة صغيرة من إحدى أسلاك الكهرباء بعد ربطهما ببعض وتوثيق التصاقهم بلاصق شفاف يحكم وثاقهم ومن ثم إعادتهم داخل أجهزة التحكم وقبل أن يتم إعادة إغلاقه

جيدًا كان عليه أن يزود اللوحة الأم لأجهزة التحكم بشرائح الاتصال، فإن قام فقط بالاتصال بالرقم الخاص بتلك الرقاقات الصغيرة أعلى ألواح أجهزة التحكم وُلِدت الكهرباء داخل الألواح ومنها إلى البطاريات ومن ثم الأسلاك الكهربائية التي بدورها ستنقلها للبارود الذي ينتظر أن ينفجر منذ حين داخل محبسه، وما عليه إلا أن يبدأ بالاتصال بواحده فقط من الشرائح لكي تُفجر ما جاورها دون أي عناء أو مجهود.

بقرارة نفسه لم يُرد إلا أن يُفجر إحدى العبوات الناسفة الصغيرة وهو متواجد بصالة الاستقبال كيلا تلفت الأنظار إليه إن اختفى، حتى لا تثار حوله الشُبهات، وما هي إلا ذريعة يستخدمها كي يُمنح وقته الكافي الذي يتوق إليه لفرض هيمنته أكثر على مَحل سكَنِهِ الجديد وتفجير العبوة الثانية المتواجدة بغرفته والتي من شأنها تحقيق مراده الأكبر، فالإلهاء ليس من شأنه سوى صرف النظر عنه، أما العبوة الثانية فجاهزة من قبل نزوله وما أرعب فؤاده وأدخل القلق إليه كالسيول حين عاد عبد السلام الكاشف إليه ليرى ما العطل بغرفته ليرى قطعًا من السجاد الخاص بغرفته قد حُرق، ولم يكن يدري لِمَ حدث حريق طفيف كهذا ولم تعطلت الكهرباء بتلك الغرفة تحديدًا، من الأساس لم يشك أحدٌ منذ زمن بعيد من أي مشكلة بالكهرباء بالفندق، كُل البلاغات تكون عن أعطال بالأجهزة الكهربائية المُلحقة بالغرفة ليس إلا، أما وأن أحدًا قد أبلغ بأن هنالك عُطلًا كبيرًا كما تم وصفه فالأمر مثير للريبة خصيصًا مع حريق صغير قد قارب على الحدوث.

لكنه لم يكن أن إخراجه لبعض الأسلاك الكهربائية من قابس الكهرباء وقطعها ليلحقها بعبوة أخرى قد يؤدي لمشكلة بغرفة وما استعدى الكاشف وعليه زاد الشك حوله فما كان من وسيلة للهرب من الأزمة تلك إلا تفجير عبوة أصغر وسط عدد ليس بالقليل وهو أوسطهم كي ينفي عن نفسه تُهمة التفجير.

أخرج هاتفه النقال وضغط على زر الاتصال، تحرك نحو الجمع الساكن

أمامه ببطء وكأنه يطالع الجثتين المُلقتين أمامه دون أن يُبدي على وجهه أي قسمات للقلق أو الرهبة.

دوت صفارات الإنذار تنعق بخطر آتٍ وتُزيد من شحابة السويعات الأخيرة وتُكثر من ظُلمتها، إنذارٌ أطلقه نبيل سلامة بأمر من رجل الكهرباء الأول عبد السلام الكاشف لينوهوا عن أن هنالك ما يدعو للفزع والخروج عن مواطن الأمان المفرط.

هرع الكُل يبرحون مواضعهم خشية انفجار يشق رداء أعمارهم ويقصف رقباهم من أبدانهم، الكُل يهرول في مساحة ضيقة لا مانع لديه أن يدهس من كان يرتشف معه كؤوس الشاي منذ لحظات، تاركين كُل لحظات تكبرهم وتجبرهم على بعضهم البعض، لا مجال لأحد أن يدعي القوة أو حب الموت الآن، الكل الآن أمام الاختبار الذي لا ينجح فيه إلا قِلة، حتى الجُثتين المُلقتين أمامهم، تركوهما ولسان حالهم يحدثهم بأن الآدمي الحي خيرٌ من الآدمي الميت، هما الآن بيد ربهما أما نحن فلا أحد يعرف مصيرنا، هروبنا أو ثباتُنا هو من سيحدد مصيرنا في السويعات القليلة القادمة.

كان الوحيد الذي نبشت العبوة الناسفة في ماضيه قبل أن تُرهبه ككل من جاوره، عادل الأخرس الذي ما أن رأى الانفجار رؤي العين حتى عاود الماضي إيلامه مجددًا بعد كل محاولاته أن يطمسه ويدفنه، عاد مجددًا يفتح جراحًا ما فتأت تلتئم حتى عاودت تزداد وتتعمق، الماضي الذي قُتلت فيه ولاء زوجته، توقفت حياته دون أن يتوقف قلبه، ظل لسنوات لا يقيم للدُنيا وزنًا ولا يطمع بشيء منها، ما أن رأى التفجير حتى توقف عقله عن الأخذ بالتفكير إلا بأمرين، أحان الوقت للاستسلام واللحاق بها؟ بزوجته؟ أم أن عليه الوقوف قليلًا ودحر من قد يودي بعادل آخر يهيم لسنوات تائهًا بين الدنيا وأهوالها، الأمران يؤلمان، الأول عليه خسارته لفطرته والاستسلام للموت بمقابل أن يلحق بمن اشتاق إليها سنوات مريرة، والآخر أن يصمد وألا يدفع فرصة لأن تتكرر سنواته العجاف مع شخصٍ آخر أو أناس كُثر.

طوال سنوات دراسته للطب منذ بضع سنوات، تعلم أن الخطوة الأولى للعلاج هي الاتصال بإحدى سيارات الإسعاف كيلا يُلحق بالمصاب ألم جديد من جراء التعامل الخاطئ معه، لكن اليوم شُل عقله قبل يديه فلم يدر ما عليه أن يقوم به أو كيف يفكر بحل تلك الأزمة، بالأساس هو لم يكن يعرف أو يتذكر أي شيء من دراسته السابقة، مقتل ولاء وهما بالسنة الأخيرة بكلية الطب أبعده تمامًا عن الجامعة حتى فُصل فصلًا نهائيًا منها، خروج دون عودة، والابتعاد عن الدراسة لسنوات بفعل الاكتئاب الحاد أنساه كل ما له علاقة بالطب، حتى أنه لم يُرد أن يعود لشيء له علاقة بالطب، أي شيء قد يذكره بذكراهم سويًا كان ينصرف عنه، مهما أحبه أو تمناه، فلم يكن ليحب أو ليتمنى شيئًا أكثر من ولاء، ولاء التي قُتلت بذات البناية منذ عدة سنوات، بتفجير اختُص به مسيحي الديانة دون تحديد لجنسية ليلة رأس السنة الميلادية، قُتلت بعد أن تزوجا بعدة أشهر، ليكملا السنة الأخيرة بدارستهما للطب سويًا، قُتلت وهي بذات موضعه الحالي كموظف للاستقبال، ذات المكان الذي شغلته هي لعدة سنوات، ظل سنوات لا يريد أن تطأ قدماه تلك البناية حتى صدر حكمٌ على سيدة يُظن أنها الجانية، حينها وبعد سنوات قليلة عاد فقط ليتذكرها أو ليلامس أشياءً تسمح لعقله أن يحتفظ بصورتها مهما مر عليه من سنين دون أن تتلاشى ملامحها وهيئتها من مُخيلته، فظن أنه إن عاد قد تلامس قدماه موضعًا كرمته هي بقدميها أو شيئًا لامسته فاحتفظ بملمس يديها كل تلك السنوات، حتى أنه وهو الذي لم يرجو أحدًا بحياته من قبل لأي شيء كان، عاد ليرجو مختار السيد أن يعود بذات موضع زوجته ليشم عطرها الغائب عنه منذ آلاف الأيام، عاد قبل التفجير ببضع أيام وصدره لا يطيق موضعه الذي وضعوه فيه بعد أن كان بعد عدة شهور قليلة سيصبح طبيبًا كما خططا سويًا إلا لأنها كانت هنا قبله ولأنها أحبت عملها كما أحبته هو.

عاد ومعه أغرب عاداتٍ قد يوصف بها رجل ما، بأن تفوح منه عطور ذات طابع أنثوي بشكلٍ متكرر كل يوم وربما ببعض أيامٍ قد يرتدي أكثر من مشغولة ذهبية، حتى وإن لم يواجه مشكلة دينية مع ارتداء الذهب

كرجل، فطيلة حياته كان يكره أن يرتدي شيئًا بأصابعه، والأكثر غرابة أن تلك المشغولات الذهبية هي نسائية تملكتها من قبل زوجته ولم يُرد لأحد أن يعرف شيئًا عنها، حتى عطر زوجته الذي داوم على استخدامه وسبب له دخول الريبة لنفوس البعض من ناحيته، لم يخبر أحد عنه ولِمَ يستخدمه.

ظل الصراع يحتدم برأسه حتى استقر بأم رأسه تاركًا إياه مصابًا بآلامه المزمنة مع مرض الصداع بسبب كثرة التفكير منذ أن فارقته ولاء، لم يقدر ليس أن يتخذ قرارًا فقط، إنما حتى ألا يترك مكانه، ظل قابعًا بنقطته التي لازمها بقدميه، ولم يقطع انحسار نفسه إليه سوى صوت مشوش غير واضح يداعب أذنيه من بعيد يأمره أن يبرح مكانه ويغادر لآخر، وهو لا ناقة له ولا جمل بأن يتحرك، قد جَمُدت قدماه بمكانهما وعقله رافض كل الرفض أن يمرر إشارات لهما بالتحرك، حتى أتاه موظف الأمن محمد عبد الله صاحب الصوت، يحمله كما تحمل الهررة صغارها بين فمها لتهرب بهم وقت أن تُحسُ بالخطر، والأول لا شيء يتحرك بجسده سوى دموع عينيه الفائرتين من الصدمة.

نهاه الأخير عن جموده ذاك وأنى له ألا يبرح موضعه أو حتى يحاول أن يتصل بأي جهة قد تساعد كل من بتلك البناية بتلك اللحظة إلا أنه لم يُجِب على أي شيء، صمت كما صمت لسنواته الأولى بعد الحادثة، لا رد فعل سوى الصمت، لا يقدر على تحريك حتى أنملة واحدة من أنامله ونفسه أثقل عليه من ثِقل الظمأ على حلق تائه بصحراء جرداء لأيام عجاف، رفع محمد عبد الله يديه وظل يهزه هزًا ويقلبه بين يديه يمينًا وشمالًا ظنًا منه أنه مخمور أو تحت تأثير أي مخدر قد يُذهب إرادته وتحكمه بنفسه قبل عقله، وهو لا يظهر عليه أي ردة فعل سوى انهمار الدمع من عينيه وإطباقٍ قد لازم فِيّه كأرض أُحكم ردمها على مدفون جديد وهي لا تسمح له بالعبور منها مجددًا.

أبعده عبد الله عن أثار الانفجار البسيطة، أجلسه على مقعده الشخصي

واضعًا يديه على كتفه مُشفقًا عليه ومحدثًا إياه:

- «أنا أعرف كل شيء، وأعرف بما ذكرك هذا ولم روحك انحسرت وعدت كما كنت، كما لم ترغب أن تعود، وبثوانٍ هُدم كل ما رغبت بأن تبنيه مجددًا وأن تبدأ من جديد، لكن أرجوك، تحدثْ إليّ، خبرني أنها ماتت مرة واحدة فقط ولن تموت ثانية بضعفك مجددًا!»

رأسه المُنكسة ألمًا رُفعت بشكل مائل لليسار قليلًا، وعاد يتأمل محمد عبد الله بعينين دامعتين يرمقه حزنًا تارة وحسرة تارة أخرى، عاد يذكر كل ما كان قد خبأه وظن أنه صار ردمًا مع مرور السنين إلا أن براثن وَحشته كان لها من الرأي ما خالفه فأطبق لسانه على قلبه وأخرج ما فيه دون تصريح منه:

- «لم أتخيل يومًا أن ما حلمنا به سويًا لن يتحقق، كنا قريبين جدًا، أقرب من الحياة لمولود جديد شُقت بطن أمه منذ لحظات قليلة، كانت أصداء لقبينا المستقبليين يترددان بأذني لحظة تلو الأخرى ولا تفارقهما، كنت دومًا أرى نيلنا وسامين رفيعين في الطب من إحدى الجامعات المرموقة وسط احتشاد وانبهار أهلينا وزملائنا، حتى أني صرت أصدق تلك الهلاوس السمعية البصرية وأتعايش بها كأنها الشيء الطبيعي المعتاد، صارت جزءًا مني وصرت أنا جزءًا من الأكذوبة، وبعد الحادث انفجر بالون الهواء الذي صرت أعبئه بهواء أكاذيبي، انفجر بوجهي محطمًا كل شيء ظننته عن حق موجود، لم يرحل حلمنا فقط، إنما رحلت من اخترت حُلمي لأجلها، وبعد أن حدث ما حدث، انتهى الحلم لي ولم يبد لي كأنه كان يسبح بي من قبل».

حاول عبد الله التدخل ليكف لسانه عن نطق ما يضيق صدره إلا وعادل يرفع يديه أمام وجهه يشير له بالتوقف عن منعه:

- «أعرف ما ستقول، لكنك لن تعرف أبدًا معنى للوحدة، اليوم! قد مر على فراقنا خمس سنوات على آخر مرة التقينا بها، آخر مرة تحادثنا، آخر مرة تهاوى كُلٌ منا راضيًا بجوف الآخر واستقر به، منذ خمس سنوات مرت، قد

أيقنت أن العالم بكل ما به إلى زوال مهما بقي ومهما حُذتُ من أناس أو ممتلكات فهي زائلة رغمًا عني، علمت أن الكون كله بأجرامه، بكواكبه، بنجومه، لا يعود أبدًا من حيث أتى، الكون بجل ما فيه يسير بطريق واحد لا رجوع منه ووفق مبدأ واحد وهو أن ما انتهى، انتهى، وليس هنالك فرصة أخرى أو عودة من جديد.

أيعود الموتى؟ أيعود الرجل لأرملته؟ لثاكلته؟ لأيتامه؟

أتعود المعشوقة لصدر عشيقها بعد أن افترقا؟ تؤيه مجددًا بعد شتاته بين العالمين؟

هذا هو الكون الضخم، وهذه هي قوانينه، فما بالك بي أنا؟

وأنا أهون من بعير ينتظر قشة -يراها ويحسبها- أقوى منه لتقسم ظهره.

لنكن صرحاء مع أنفسنا، الكون به حقيقتان اثنتان فقط، أما الأولى فهي الموت، وأما الثانية فهي أن ليست كل أحلامنا من حقنا حتى وإن نبعت من عقولنا».

«هون عليك يا عادل، أنت لم يكن لك يد ولا حتى عِلم بما قُدِر أن يحدث لها، أعي وأقدر ما ينبش صدرك، لكن أهذا ما تمنته وطالبتك به وقت أن رأيتها تنازع الموت وتتحاشاه على سريرها الأخير بغرفة العناية المركزة؟!

أهذا ما أمرتك به؟ دعك من هذا، بأي سبب جئت ها هنا؟

ألم تطأ قدماك موضع قدميها لتترك العامة يقولون إن زوجها عاد لييحي ذكراها؟ فما أنت بذكراها فاعل الآن؟!

يا صديقي قِف على قدميك وتشبث بما طلبته منك، لعلك بهذا تُحيي ذكراها، فليس الذِكر بالدموع، إنما أن تذكر أحدهم فعليك أن تُقدم لهم ما تتكاسل نفسك على تقديمه لذاتك!

أأُخبرك بشيء؟!

أنا أعرفُ كُل شخصٍ هنا، كُل حكاية دارت حوله وبه أعرفها، كل قِصة اخترعت وأُلفت بصفاء نية أو بشر مقصود أعرفها، أعرف دوافع كل شخص هنا، ودعني أحدثك بشيء ربما لم يُقدر لك أن تعرفه من قبل، لا أحد هنا لا يعاني من مرضٍ نفسي، بما فيهم أنا!

كُلنا مصابون بأمراض نفسية مزمنة وخطيرة على من حولنا قبل أن تكون علينا.

هنا أنت تعيش وتقتات وتعمل وسط آلاف النزاعات النفسية وبرغم هذا، الكُل مجبر على السير، فمن يقف لن يُرحم ومن لم يتم رحمته يمت، فلا تقف ولا تحدثك روحك المهزومة بأن الوقوف هو الحل!

تذكر! من يقف، يمت!

ولا أعتقد أن ولاء تود أن تراك عن قريب بسبب أنك يئست وتوقفت!

لكن، من اليوم الأول لك وأنا أحاول جاهدًا كي أعرف ما سر تِلك الحُلي الذهبية وكيف لك يا دكتور أن تضع بعض العطور النسائية؟ أم أَن دراستك بقسم الطب النسائي قد تركت أثرها عليك؟»

نظر عادل بحسرة يتعجب من سخريته التي تلت كل ما قاله عن إحساسه به:

«أنا أعلم تمامًا ما يدور برؤوسكم حينما أُدير ظهري لكم، أعرف كل كلمة تتحادثون بها مع صديقكم الآخر الكامن بعقلكم أنتم فقط، كل الأسئلة التي تبحثون -فضولًا- عن إجابة لها، تحدقون بي ومن ثم تُثار أسئلتكم الفضولية.

تتسألون لِمَ يبد هكذا؟ لِمَ يرتدِ رداء الصمت؟ لماذا دومًا منعزل ومنطوي على نفسه؟

المزعج ليس فقط أسئلتكم، إنما أيضًا فرضياتكم عني!

هذا عربيد! هذا مغرور وتكاد أنفه تلامس عنان السماء!

أتمنى فقط لو تتأملوا كيف أن السماء صافية اليوم! أو كم هو مذهل أن ترى هِرة تُرضع صِغارها وتَحميهم، أن تصبوا جَم تفكيركم عما نسيتموه قبل ذهابكم لأعمالكم وكم هو مهم وسيكون مفيد أكثر لو فكرتم في كيفية حل تلك المعضلة اليومية.

المشكلة أنكم تظنون أني لا أريدكم حولي، لا!

أريدكم بجواري لكن كثرة تفكيري بكم وبما يدور في رؤوسكم عني وبما تظنون بي، يشغل رأسي لدرجة أني صرت لا استمتع بجمال السماء حين صفائها، أو جمال القطط وفطرتها مع صغارها، وما يؤلمني حقًا أني كل يوم عليّ نسيان العديد من الأشياء قبل ذهابي لعملي لأني لا أفكر بعملي، إنما أفكر -كل يوم- كيف سيمر اليوم معهم؟ وما سيظنون بي اليوم؟»

- «وهل ستعيش حياتك هكذا؟!

دون أي إرادة منك أو محاولة؟!»

= «نعم! بشكلٍ مفاجئ غير متوقع وسَابق لأي ردةِ فعل سَيصمُتُ كل شيء، سَيعُم الهدوء أرجاء المكان حولي، حتى صوت أنفاسي لن يعود مسموعًا كذلك، ولن تكون تلك أول مرة التي أغفو بها ضعفًا مني تجاه النوم، لكنها لن تكون ككل مرة، فالنوم بهذا اليوم سيكون جملة وتفصيلًا مختلف! ورغمًا عني ستتوقف رأسي -أخيرًا- عن التفكير، وتلك المرة على عكس ما اعتدته، لن أحاول ثانية، لن أثابر عكس روحي الكسولة الخاملة ككل مرة أبدأ شيئًا جديدًا، ليس لأن اليأس تملكني، إنما لأن روحي لن تعود موجودة بعد ذلك.

فما الفائدة من مناوشة من ذهبت ولم ولن تعود؟!

كل شيء قد قُيّد ولا مجال لتغييره أو إعادة قيده.

حينها سيتوقف حسابُ الزمن المُعتاد ليبدأ آخر لم أعرف عنه شيئًا قط، يومًا ما -قد يقترب أو يَبعُد- سأتوقف أنا والكون دائر لا أشغله ولا أنقص منه شيئًا، ربما لن يدري بي مزارع بأحد حقول الصين، أو زعيم عصابة بأمريكا الجنوبية، أو حتى شحاذ بأوروبا، لن يتوقف شيء لي أو عليّ.

فقط أتمنى أن يُدركني ذاك اليوم وأنا أفترش سريري غائصًا بأحلامي، أرى من كنت أتوق لهم مبتسمين تبتهج أساريرهم لعلمهم -غير مفهوم المصدر- بذهابي لهم، لا جسد لي مُبعثر على الطرقات أو خبرٌ عني يفصح بأني ممن تُجري التحقيقات لمعرفة الجاني عليهم أو مطروحًا بأرض مُتسخة صلدة على عظام عمودي الفقري -الشابة- بإحدى المشافي الحكومية أنتظر دواء لن يُكتب أبدًا لي أن أراه فأنتهي بدونه.

أنا جئت إلى هنا دون أذى وكل ما أريده أن أذهب كذلك.

لن يتوقف شيء لي، كل شيء سيعود إلى سيرته الأولى حيث السكينة والثبات المميت.

لقد أخبرتها أن نسافر لبلد أخرى! نهرب من هُنا! طلبت منها مرارًا وألححت عليها تكرارًا، لكنها دومًا ما كانت ترفض وحين لا تجد بد من مواجهتي، كانت تخبرني أنها ستعيد النظر في الأمر، وحين أعاود سؤالها عن قرارها كانت تتعلل بأنها لا ترى أي أمل لنا خارج حدود بلادنا، أليس الأمر هزلي؟

كانت ترى أن سفرنا يعني بالضرورة موتنا!

انظر لحالنا الآن، هي وضعت بصندوقٍ محكم الإغلاق عليها وأنا هنا وحيد، ألم يكن من الأفضل لنا أنا نغادر بكلّ ما نحمله بصدورنا من فرحٍ ودموع وآمال وخيبات وأحلام وانتكاسات؟

كنا سنتجاوز كل شيء سويًا، كنا سنعود مرفوعي القيمة والقامة لكنها رفضت وتركت جسدها هنا للتراب ليأكله كما ابتلع الهواء أحلامنا!

لا أعرف من منا المخطئ ومن المصيب، لكن القضية ليست من أخطأ ومن أصاب، إنما القضية كلها أني أصبت بداء الركود مثلها؛ فصرت غير قادر على ترك موضعي ورؤية حدود البلاد من نوافذ الطائرات، وكأني ارتبطت بالأرض هنا، ارتبطت بها فقط لأن لي تحتها بدن لطالما كان لي المأوى، وبها أعين لطالما علمت ما بصدري دون أن أتفوه بكلمة واحدة، لذا صار لزامًا عليّ المرابطة بجوارها، أتحسس ثبات العالم كله كأنه جَمُدَ وسط فنائها لحظة تلو الأخرى.

بخزانتي مُذكرة اعتدتُ أن أدون بها بضع أحداث من يومي، طيلة أحد عشر عامًا كانت تلك المذكرة هي شريط حياتي المقروء غير القابل للنسيان أو للإنقاص مِنه.

حتى وإن قد مُلأت فقط ببضع كلمات هنا وهناك فلا زلت أرى منها مشاهد كان فيها فلانٌ يخط بيديه داخلها أني واحدٌ من ذوي حظيته، والآن باعد بيننا كل شيء، حتى أنه لن يستطيع رؤيتي مجددًا، وعلان لا يعرف تحديدًا ما يكتبُ لي حتى أتذكره، فيكتب تارة كلمات عابثة غير مُنمقةٍ ولا مرتبة فيرتبك ويقطع الورقة تارة أخرى، وآخر حاول الإنقاص مني بكلماتٍ بظاهرها عفوي ومرح وتحوي بداخلها سمٌ يكفي إن وزع على حيات الأرض، وأخرى تتودد بكلمات رق لها القلم ولم أرق أنا لها، والآن على الأرجح تُكتب لشخص آخر، حتى وإن كانت هذه الكلمات مكتوبة فلا زلت أشاهد كل مشهد كتبت فيه هذه الكلمات بتلك المذكرة، لكني لم أكترث لواحدة من تلك المخطوطات، تنبهت لإحدى صفحاتها دونت بها أني أتمنى لو أن تمر تلك الليالي الكاحلة، الصاخبة بنفسي القاتمة لروحي وأن ينتهي كل هذا.

لم يكن ذلك المهم، الأهم كان بالصفحة التالية، تلك الصفحة المُسودةُ بفعل فاعل، هي لم تقصدُ أن تزينها بكُحلٍ تكحلت به، بل -على الأغلب- أن أنهار

الجنة قد اسودت وأودعت بعين أحدهم للحظات.

حينما لامست مذكرتي لتكتب لي شيئًا أخيرًا وما أن أمسكت بقلمٍ كنت أحسدهُ حتى لم تقدر على إكراه دموعها على الخروج ف حكت لي -لكن بعينيها- عما يدور بنفسها ولِمَ لم يعد خفقان قلبها هادئ، وعن صُلبان قد صلبت روحها فقط لتحاول أن تفديني.

تزينت مذكرتي بدموعها المُطعمة بالسواد، سواد دافئ، أول أسود جميل لامع مبهج، فقط لأنه نبع منها، وما كان لي حينها شعورٌ محدد أعتصم به أمام أنهار العسل الأسود هذا، فلا مواساة قد تكفي إحساسي بها ولا فرحٌ لأني من كان له الحق -دونًا عن أي شخص آخر- بأن يرى هذا النوع الأوحد من الجمال.

الآن بعد عدة أعوام قد جف خط عينيها وصار كئيبًا مُعتمًا ولم يتبق منها شيء سوى سواد، وحينها فقط أغلقت مذكرتي حتى لا يُكون السواد اثنين، واحد بغيابها والآخر جاف، أغلقتها ولن أنال فرصة فتحها مجددًا».

صمت محمد عبد الله أمام دموع الأخير حيرة لا يجد فيّه ما ينطق به ليخفف عما بصدر زميله، حتى دراسته بكلية الآداب شعبة اللغة العربية لم تُغنِه أمام انحسار الكلمات عن لسانه، لم يقو على الإتيان بأي من تراكيب اللغة أو مفرداتها ليواسي به قلبهُ المكلوم، إلا يديه هي فقط من حاولت أن تربت على كَتِف الآخر :

-«أنا أعي كل كلمة نطقت بها يا عادل، كل ما في الأمر أني قلقٌ والريبة تناوش حصون صدري، وأخاف برؤيتك بحالتك تلك أن تتساقط طمأنينتي أمام حصارك لي بشتاتك هذا!»

لم يبادله الأخير أية كلمات قد تدفع بالهدوء إلى قلبه، أمسك به محمد عبد الله من عَضُديه رافعًا جسده المتهاون من الأرض مُبتعدًا به لخارج الفندق لعل تجدد الهواء أمام أنفه قد يهدئ من روعه ويزيل عنه همه، إلا

أنهم ما فتئا أن اقتربا حتى دوى صوت انفجار آخر بالطوابق الأعلى، صوته أعتى ومداه أوسع وتأثيره أكبر، انبطح الكُل أرضًا، أيديهم تعلو رؤوسهم خوفًا وأمنًا، وأعينهم مملؤة بفضول وترقب ليعرفوا من سقط ومن لم يصبه قدره، تكاد رئاتهم بالكاد تستقبل الأكسجين ووجوههم كُلها خوف من أي انفجار آخر قد يأتيهم من حيث لا يحتسبون، وسعادة من قدرهم الذي أخر موعدهم مع مصيرهم المحتوم، وحيرة عمن يا ترى قد نَجى ومن لم يُفلت من براثن مُفترسهُ.

الساعة الرابعة عصرًا.

لم يبق منه شيء سوى بضع أحلام لم تتحقق وأمانيّ لم يقدر على رؤيتها أمامه واقعًا وبعض ملليمترات من جسده لم تحترق بفعل نيران التفجير، لم يكن يظن عُمره كله أنه سيعش حتى يعود لقريته محمولًا لأخواته وأمهِ الثكلى، لم ينفر من الموت يومًا قط، لكن لم يُرد أن يترك أربعة نسوة بمفردهن دون حامي لهن أو معصمٌ يَشُدون به أزرهن وقت ضعفهن، لكن ككل ما تمناه، لم يتحقق شيء أراده، نفذت روحه من جسده بعد أن حاوطها بذلته العسكرية المُحلاة بعرق جسده الطاهر، قُتل عزيز عبد الباقي، فاضت روحه عن جسده ومال بدنه الفاني للأرض لا يملك من أمره شيئًا ولا يردء عن نفسه شرًا أو يكسب لنفسه نفعًا.

قُتل بعد أن أنهى كل ما له علاقة بعمله الذي سلب منه إرادته وحياته وأهله، بعد أن قرر الخروج سالمًا بما بقيَّ من كرامته على الأقل أمام نفسه، انتهت آماله البسيطة بالدنيا بعد أن تطايرت شظايا حديد وبارود بجسده الضعيف الهزيل، لم ينتهي به قدره عند ذلك، فما كان له من دنياه حتى تجذبه بذاك الممر وحيدًا أمام تلك الغرفة تحديدًا ولا أحد حتى قد يقاربه بأي مسافة كانت قد تعد على أصابع اليدين.

تُرك وحيدًا يتألم بموته كما تألم بحياته هو وحده كذلك، لا أحد سمع منه بحياته ولا أحد سمع عنه بعد موته، فلم يقدر أحد على الاقتراب من موقع

التفجير لدقائق كانت كفيلة بخروج روحه من جسده بعيدًا عن الأنظار، ولم يدر أحد به سوى من تسجيلات كاميرات المراقبة بغرفة الأمن المتواجدة بصالة الاستقبال، وحتى وقتها لم يسعفه أحد حينما شوهد مُلقى أرضًا تنساب دمائه من كل حدب وصوب بجسده المفرغ من أثر الشظايا، إنما انتظروا حتى صعد لحمله كُل من عُرف بأنه من رجال الإسعاف.

أتوا به بجسد ممزق، مغطى بخرقة بيضاء بالكاد تغطي بدنه، محمولًا على حاملة يرفعها رجلان من جهتين، أمامية وخلفية ليضعوه بسيارة إسعاف حتى يُنقل لمصلحة الطب الشرعي كي يُفحص جسده قبل أن يواريه الثرى.

و بينما كان عزيز عبد الباقي يُتفقد جسده وينقل بسيارة الإسعاف حتى أُعلن عن مؤتمر صحفي لكشف أسرار مقتله وما سر مقتلِ صابرين وما حل بخالد المصري، ليس المريب بالأمر سرعة الإعلان عنه أو حتى انتظار أية تحقيق رسمي بشأن كل ما حدث، إنما توجه شريف أبو السعود لأجهزة الميكروفون والاستعداد للتحدث أمام الإعلام بكافة أذرعِه عبرها، شريف أبو السعود الذي ما كان شريفًا يومًا قط ولا نال شيئًا مما وُصِف به قدر ما ألحق العار بكل من حمل ذات الاسم، أبو السعود الذي دومًا كان قوادًا يقود النخاسة قيادة ويعيد زمن الإتجار بالأبدان مقابل ما تيسر من الأوراق المالية باختلاف فئاتها وقيمتها السوقية، لم يربح يومًا من عمل عُرِفَ بأنه حلال أو ذو قيمة، إنما رزقه دومًا على من هم أضعف وأوهن منه، رزقه دومًا على أبدان غيره، فإن حَسِنوا حَسِن وإن ساؤوا انقلب على أم رأسه، لذا لم يختر أبدًا أي أحد للعمل تحت إمرته، إنما كان يختار قوته البشرية العاملة أدق اختيار كاختيار الموت للصالحين وسط العامة الغافلة، لكنه على العكس -أو هكذا يرى- يحيهم، بأموال لا قِبل لأحد أن يحصها، جاه ونفوذ ما قُدر لأحد أن يحظى به من قبل، موافقة على أي طلبٍ مهما بلغت درجة استحالته، غير خاضعين لأي شخص أو لأي شيء، إلا هو!

لكن لم يكن هو من به طمع بصابرين، ولم تكن يومًا ضمن حساباته أو

حتى قد تُحرك له -من جمالها- جفنًا، إنما هو طلبٌ أو بالأحرى أمرٌ أُمر به، وليس له حق المجادلة فيه، لا يملك أن يدافع عمن أتاها المرض من كل حدب وصوب ينهش لحمها وشحمها، ولا بيديه أن يرفض المساس بمن كل آمالها بالدنيا أن تتعلم وتُعلم طفلها وتنشيئه على الطريق القويم، ولا يقدر حتى على عرض أخريات أجمل وأكثر علم وثقافة على صاحب الطلب، هو عليه التنفيذ فقط وإلا فالعزل من موقعه سيكون نافذ قبل أن تستلم أنفه الدُفعة المُقبلة من الأكسجين.

كان لا يملك من أمره شيئًا إلا التنفيذ، وبالرغم من هذا كان يرى أنه هو وحده من يتحكم بمصائرهم، يُنجيهم من بطشه وبطش من يحمونه إن شاء، أو يرفع يده عنهم لتأكلهم نيران حسرتهم أولًا ثم بأسه وطغيانه بعد ذلك، لم يكن يخجل ليذكر ذلك أمام القاصي والداني، الغريب عنه قبل القريب، أنه يعتبر نفسه إلهًا مُجسدًا بجسد بشر لا يمت لذرية آدم بصلة، يرى دومًا أن كل شيء بيده وبأمره، لا أحد يخرج عن طوعه وإرادته إلا وهو هالك، يزيد من الطين بِلة حين يُلفق تهمة هنا أو كارثة هنالك لمن يريد السير على خطى غير خطاه.

أمسك بالميكروفون وكل من حوله -ممن يعرفونه- مذهولين تكاد حواجبهم أن تظل معلقة بموقعها الجديد من هول صدمتهم أن هذا، سيكون هو المُتحدثُ الرسمي باسم الفندق وباسمهم كلهم رغمًا عنهم، شاء من شاء وأبى من أبى، بدأ حديثه ولا أحد يفكر بشيء إلا وكيف له أن ينتقل من منصبه المتواضع إلى تلك المنصة عالية القيمة، لا أحد استطاع أن يحزر كيف انتقل هكذا إلا محمد عبد الله الذي فطن كل شيء عنه من اللحظة الأولى، وقت أن انتقل من عامل بنظافة الغرف إلى رئيس على زملائه فقط لأنه ييسر كل مُحرم، ثم الآن ينتقل من مكان ناله بغير الشرف إلى آخر ناله بالدونية والانحلال، ومن غيره يستحق ذاك المنصب، من غير قواد يقدر أن يواري عورات سيده بالإعلام سوى قواد مأجور.

عاد شريف أبو السعود يشير للجالسين أمامه إن كان أحدهم يملك سؤالًا ما حتى أتاه أولهم:

- «سيد شريف، ما قولك فيما حل ها هنا من تفجيرين متتابعين بذات اليوم؟»

ابتسم ابتسامة مُصطنعة كاذبة مُداعبًا أنفه بعد أن عدل من مجلسه:

«بكل أسف، ندعو لكل من ناله نصيبٌ سيء من تفجيرات اليوم، كما نأسف لموت عزيز عبد الباقي لكن لدينا خبرين إيجابيين، أما الأول فهو أن التفجيرين لم ينالا من أحدٍ سوى شخص واحد».

= «وهل ذلك الشخص غير معروف اسمهُ؟!»

سأله مقاطعًا أحد الصحفيين.

- «لا بل له اسمٌ لكن كثرة ترديده لن يفيدنا بشيء أو يقدم دليلًا جديدًا على ما قد حدث».

ربما بكلماته جزء تملأه الصحة، لكن على الجزء الأكبر كان فيه إنكار لأهمية من قُتل مرتين، مرة حين فاضت روحه عن جسده، والثانية حين حُسِب أنه مجرد رقم حمد الله عليه المسؤولون إنه لم يزد، ربما لأن في عقيدتهم أن الكارثة يمكن أن تصنف كبيرة إذا ما فُقد في حدود خمسين شخصًا فيما أكثر، أما ما دون ذلك فهي حادثة عابرة يمكن أن تحدث بأي مكانٍ آخر ولا يعد من راح ضحيتها سوى أن قدره بتلك اللحظة فلا لومٌ علينا ولا شأن لنا بما قد مر به.

عاد شريف مجددًا يُكمل حديثه عن الخبر الثاني الذي يحوذه:

- «أما عن خبرنا الثاني فهو أن تلك التفجيرات لم تكُن سوى ماس كهربائي ليس أكثر، إنما هو سوء حظنا أن حدث ذاك الحادث غير الإرهابي مرتين متتابعتين

ذات اليوم، إنما الخبر الذي أتيتم لتسمعوه وهو من المُتسبب بذاك الخطأ المتكرر، فالآن يمكننا القول بأن المسؤولية كاملة تقع على الكاشف، عبد السلام الكاشف عامل الكهرباء لدينا والذي كان من شأنه إبلاغنا بأي خطأ أو تلفٌ علينا إصلاحه!»

ربما لم يهتم عبد السلام الكاشف يومًا بتلك المؤتمرات التي لا يقال بها ما يفيد ولا حتى تحوي جملة قد تُعلم طفلًا مبادئ اللغة العربية، إنما هي مضيعة للوقت وبثٌ للخواء وإفسادٌ للمبادئ العامة للبشر من كثر ما بها من تدليس وافتراء، لكن أن تسمع اسمك بمؤتمر يفترض أن يُكشف فيه اسم الفاعل أو حتى من قد ناله نصيبٌ كبير من الشك فذلك أمرٌ جَلل ولا إرادة لك في أن تُثني أذنيك أن تتنصتا لما يقال عنك.

تحديدًا ومن أمام بوابة الفندق الرئيسية قد سَمع الكاشف اسمه ينطق على لسان أبو السعود:

- «لذا قررت إدارة الفندق أن تقيله عن عمله وأن يوجه له اتهامٌ صريح بالإهمال ما ترتب عليه موت شخص واحد وإتلاف ممتلكات عامة وإرهاب أشخاص كُثُر».

لاصق الكاشف موضعه غير قادر على مبارحته ولو بمقدار أنملة، خارت قوى سيقانه الرفيعة وذَبُلت عيناه وعرف أنه على شفا دائرة مفرغة سيقضي بها ما تبقى من حياته كعروس ألمانية بأربعينات القرن الماضي انتظرت حبيبها يعود من موقعة ستالينجراد، لا تملك من أمرها شيئًا سوى الانتظار مهما طال المطال، فلا هو عائد ولا هي تقدر على عدم انتظاره، فلا هم عبد السلام على مبارحته موقعه وهو قريب من المنفذ الرئيسي ولا انتظاره سيكون به فائدة إنما انشغل فِكرهُ بمن هم حاملون لاسمه شبابه الذكور الثلاث وطفلته الوحيدة، إنما حتى وإن خرج منها سالمًا وهو ما لا قد يصل له عقل أكثر المتفائلين على وجه البسيطة، سيكون مسه من الضُر ما قد يلوث حياة أبنائه. سيكون قد تسلم لقب من رُد مؤخرًا من السجون، عبد السلام الكاشف الذي

ما أن برح الشرقية منذ أربعين سنة حتى قرر ألا يخوض غمار السير وسط الطرقات، إنما صنع لنفسه جدار -يبتعد حتى عن الجدار الذي يسير الناس بجواره- ليمشي حذوه، ربما لأنه عرف أنه مهما عاش بالعاصمة سيظل غريبًا عنها، أفإن كانت تمتص أرواح أبنائها وقاطنيها بالوراثة وتعيدهم أغرابًا عنها فستتركه وهو حديث العهد بها؟

لذا قرر منذ فجر اليوم الأول له أن يلوذ بجداره -بما يحوي من دراسته للكهرباء بسن صغير ومن ثم أولاده وزوجته قبل أن تتنحى عن الدنيا رغمًا عنها- بمنأى عن أي شيء وكل شيء، حتى وإن ضاق الحال به، حتى وإن شابت شعيرات رأسه حزنًا وفزعًا على أمراض زوجته التي صارت تغدو أكثر ألمًا وصعوبة فلم يشتك يومًا، يموتون جوعى؟ مرضى؟ لا بأس بهذا، على الأقل أرواحهم لن تُنزع من أبدانهم نزعًا وتُجبر على الخروج حتى وإن أبت في البداية، هذا ما كان يظنه.

أن يظل بعيدًا عن أي خطر قد يداهم أولاده، حتى اسمهم خاف أن يعكره شيئًا، خاف أن يحاولوا يومًا الفرار من أسمائهم من حياتهم السابقة كما فعل هو حين هرب للقاهرة من بطش ما فعله به فقط اسم والده، الكاشف الذي كان دومًا عربيدًا تختلط دماؤه بالخمر من إفراطه في شربها، الكاشف الذي ألصق العار بمن سيأتي بعده من نسله بعدما عرف عنه مرافقته للنساء وعدم اتزانه أو قوله كلمة حق، ليس لأنه ظالم لكن لأنه كان لا يفيق أبدًا من سُكرته، لذا هجره عبد السلام ولده للقاهرة هاربًا من عار الالتصاق باسم والده، هرب من عار والده إلى عار العاصمة التي لا تحن أبدًا لأي شخص حتى وإن كان من نسل أحد إخوانها من الأقاليم الأخرى، عاصية سافرة لا تداوي جراح أحد، إنما تزيد الجراح وتداويها بزيوت خاصة بها صنعت خصيصًا من الملح والليمون، وضعتهم هي بجرح عبد السلام حينما أراد التعلم فرفضته كافة المدارس إلا مدرسة قريبة واقعة بحي على أطراف المدينة، بعد أن قرر أحد ملاك الورش الصناعية أن يتم له أوراق اعتماده بنفسه وعلى ضمانته الشخصية كيلا يضيع مستقبله، وما أن خرج منها حتى

تتلمذ بمدرسة الكهرباء وهي ما أهلته للعمل بتلك الوظيفة الحالية التي هدمت كل ذرة تراب وضعها في جداره على أم رأسه.

أفاق عبد السلام من غفوته على قبضة غير النبيل سلامة تلتف حول ذراعه وتنزعه من موضعه نزعًا، بحزم وبطش جذبه تجاه البوابة الرئيسية دون مناقشة أو حتى مجادلة، لم يَدُر بينهما أي حوار -منطوق- إنما عين كل واحدٍ منهم على حدا صالت وجالت بعين الآخر، فعين عبد السلام كانت تتأفف الاستسماح وطلب العطف، خصيصًا ممن لم تنظر له يومًا نظرة حسنة بل على العكس كانت دومًا تراه ذميمًا -وإن حَسُنت ملامحه- لكن لم تكن تألفه ولا تُكن له أي مشاعر إيجابية، الرفض والبقاء بعيدًا هي كل ما كانت عينا عبد السلام تقوم به تجاه غريمُه التقليدي نبيل سلامة، الذي وإن حَسُنت عيناه فلم تكن نظرته حسنة تجاه ألد أعداء عمله، ليس لتقارب عملهما ووجوب التنافس -الشريف أو غير الشريف- بينهم، إنما لأن الأخير نال ما لم ينله الأول بأي وسيلة شرعية كانت أم غير شرعية، حصد آلاف من كلمات الرضا والإعجاب والاستحسان وهو صاحب الشهادة الوسطى، أنىَ له أن ينل كل ذلك يوميًا على حساب ممن يُحسبُ على القوة الأمنية للبلاد؟

هذا ما أثار نفس نبيل تجاه غريمهُ.

ساروا لبضعة أمتار قليلة كُلٌ منهم يحدث الآخر -بروحه- كم يكرهه ويكن له البغض والعداوة.

فنبيل وإن كانت أكبر مشاكله الغيرة من اتساع رقعة شعبية عبد السلام يومًا بعد يوم، فإن أكبر مشاكل عبد السلام بدأت منذ أن وطئت قدماه ذات البناية، ذاك القصير ذو السِمنةُ المفرطة على جانبيه وأفخاذه وأعلى معدته، لم يترك فرصة لعبد السلام بعد أن أحس منه أنه شخص يألفه الناس بسرعة كبيرة، إذ محبة شخص آخر قد تودي بمكانته هو، حتى وإن كانت تتلاشى أو انعدمت بالفعل فـنبيل الذي مذ أن تطأ قدماه الفندق، حتى سار يهجو ويَسُب كل من شهق أو زفر أمامه، معللًا تصرفاته تلك بأنها طريقته الخاصة

للدعابة وطرح النكات وسط أصدقاء عمله الجدد، والذي بالطبع كان من بينهم عبد السلام الكاشف.

لم يألفه أحدٌ، ولم يُكن كائن من كان له أي محبة طيلة ثلاث سنوات قضاها بذاك الفندق، لم تتسع له قلوب من حوله رغم اتساع الأروقة والطرقات والباحات من حولهم، صارت أفئدتهم تتحسسه وتتنبأ بمجيئه فتبتعد مسرعة، لم يحدث شيء خارق ليشتري به عداوتهم، إنما ما أخل بمكياله بموازينهم سفاهته وبذاءة الحديث الذي صار ينساب منه كما تنساب أعمار العجائز بلا رجعة باحثين عن أمل الشباب الدائم، بداية، ظهرت عداوته لعبد السلام لأسباب عدة وليس دون داعٍ كما يظهر، إنما إحساسه الشخصي بنواقصه -غير الظاهرة للعيان- هي ما دفعته للبغضاء، أهميته لدى كل من يعمل أو عمل معه، ليس لدوره الذي يمكن لأي شخص آخر أن يقوم به، إنما لعفاف لسانه وطيب نفسه، والذي دومًا ما أثار تساؤل نبيل، لِمَ يحظ بكل ذلك الاهتمام رغم عمله قليل الشأن، أجره شحيح القيمة وهيئته متوسطة الأناقة؟ لذا حين أتته فرصة الوشاية به قهرًا وظلمًا لم يتردد ولم يفكر لثوان عما إن كان ذلك صحيحًا أم لا، لم يفكر سوى بطريقة تمكنه من الخلاص منه، لعل ذلك يمكنه من الظهور مجددًا وسط أقرانه بعمله بعد أن جذب عبد السلام منه كل الأضواء بعد أن كان يمتلكها طيلة عدة أعوام، لكن بمجيء عبد السلام بعده وسلبه لكل الأضواء زاد توتره وسطوته على كل من كان حيًا يُرزق بذات الفندق، ربما ليثبت لهم أنهم تحت سيطرته بأي حال، فإن لم يكن بالود فهو بالقوة والردع.

قد أتى نبيل سلامة سلفًا أحد مدرائه الجدد شريف أبو السعود سهوًا يحادثه أن وجود شريفًا كـعبد السلام الكاشف خطرًا عليه ولا بد من التخلص منه بأي حيلة كانت، حتى وإن اتهموه أن الماس الكهربائي المسبب للحادثتين كان بسبب تغافله وعدم إولاء أية اهتمام لعمله مما أودى بحياة شخص وذعر وخوف مئات آخرين، بداية لم تكن تلك الفكرة المناسبة بعقل أبو السعود، لكن على أي حال سيتخلص ممن رفض عمله السابق وأفعاله الشنعاء

وحادثه عنها عشرات بل مئات المرات؛ مما زاد حنقه فحتى وإن لم تكن الفكرة الأنسب أو الأدق فعلى الأقل هي تفي بالغرض -حتى ولو مؤقتًا- حتى يتسنى له الإتيان بأخرى، أما الجانب الآخر من المخطط الشيطاني فكان أسعد من صبي نال الفقر من والديه وفجأة امتلك كل ألعاب العالم فكانت ذات إفادة قيمة له، ربما لإرضاء مرضه النفسي المعروف بـجنون العظمة وإحساسه الدائم أنه تحت الأضواء وأن أعين الناس دومًا منصبة عليه هو فقط، ومن حقوقه الأصيلة وليست المكتسبة أن ينال اهتمام الجمع من الناس ويرى في أعينهم استحسانًا كبير له، ومن الجانب الآخر يكون قد قدم خدمات لزميل، فينال أي نقاط إيجابية لديه ولدى الإدارة.

ظل عبد السلام الكاشف مستسلمًا فاقد القدرة على الرفض، ظل صامتًا وقت اقتاده سلامة حتى لاحظه محمد عبد الله مُنكس الرأس خائر القوى يائس لا يحرك ساكنًا، كأنه مُعتقل يهودي بسجون هتلر النازية، نظر إليه آسفٍ عما وصل إليه، مشطور الفؤاد على حالته البالية، يود لو أن يحادثه لكن يعلم علم اليقين أن ليس هنالك ما قد يُنحي الحُزن عن صدر زميل عمله، حتى ما إن استجمع بعض الكلمات على شحم لسانه وحادثه وهو يقاد تجاه البوابة الرئيسية كالأنعام:

- «لا عليك يا عم عبد السلام، فيوما ما سيعلمون أنهم خسروك ووقفوا بجانب من لا يعدل ولا يُنتظر منه رحمة، سيعلمون أنهم أعانوا عليك ظالمًا وأودعوا أنفسهم -بأيديهم- حفرة لا ينجون منها ما حيّوا، سيعلمون أنهم انتصروا لوهلة وخسروا كل ما تلا ذلك، دعهم بمفردهم يكتشفون كم أخطأوا حين لم يبحثوا بعين العقل عن الحقيقة وما الغرض من إخفائها وإلصاق العار بآخر، ربما سيعلمون ذلك بعد حين، لا نعرف مقدار له حتى الآن، ربما عام، اثنان، أو مائة، لا أحد يعلم وليس هنالك أي مقياس لذلك، لكن ما تيقن منه فؤادي إن تلك المأساة التي بدأت بقهرك لن تنتهي إلا حين ينتهوا هم من القضاء على أنفسهم بأنفسهم، حين يدعسون بعض بالطرقات ويقتل بعضهم بعضًا من شدة تعنتهم، لا أعلم إن كنت مخطئًا ومذنبًا حقًا أم لا،

لكن ما أثق به أنهم هم من سيثبتون حقيقتك أن كنت بريئًا، سيظهر ذلك بندمهم وحسرتهم على خسارة شخص مثلك، سيعرفون أن خسارة الشريف أفجع من الصمت على الخائن وعدم الوشاية به، دعهم يعلمون كم كنت أنت بمفردك تردأ عنهم أذى لو طال نعالهم لسقطوا مغشًا عليهم من شدته، وحدك كنت حائل بينهم وبين الطوفان الأخير الذي لا عاصم منه ولا حتى هنالك نوح آخر يأويهم بإذن ربه، طوفان من ماء لكنه يشعل بحيواتهم لهيبًا لا طاقة لهم به، لهيبًا لن يغير أي شيء حولهم إلا نفوسهم التي ستغدو أكثر حيوانية وبطشًا.

لكن أخبرني كيف لهم أن يضعوك بموضع المسؤولية عن شيء ليس لك شأن به، وأنت من حذرهم مذ اللحظة الأولى عن خطر كهذا وهم من لم يستمعوا لك؟»

ما فتئ عبد السلام أن يسمع كلمات الأول حتى تيبست قدماه وقاوم حتى توقف القاطرة البشرية نبيل سلامة لير لم توقف المُتهم عن السير، حتى عاود الكاشف لزميله الأول يبادله بعضًا من كلماته ويجيبه على سؤاله واضح الإجابة والعلة منذ الوهلة الأولى:

- «أوكنت تظن أني سأعبر خلال تلك البناية سالمًا؟

هنا أنت لا تملك أي فرصٍ للعيش بآدمية أو ما يقاربها حتى، لا تملك زمام الاختيار لنفسك ولا حتى حرية الرفض، أنت سجين حتى تنفك قيودك إما بالرجوع عن أفكارك أو بالموت، لكن أن تحيا وتنوي أن تحوذ فكرًا، هذا يعني أنك مقيد إن تُركت وشأنك من الأساس».

= «لكن...»

قاطع عبد السلام حديث زميله مبتسمًا ابتسامة صفراء مُستنكرة:

- «لا تقل لي لكن وتُكمل بأي شيء تراه منطقيًا، هذا يحدث بأماكن أخرى

يتحدث فيها المنطق، أما هنا فنحن نعمل لنسكت زئير معداتنا، ننصاع ونطيع الأوامر لنحافظ لأنفسنا على حرية التنقل داخل القفص الكبير بدلًا من نظيره الأصغر، نقتطع من حيواتنا على أمل أن نعيش يومًا واحدًا فقط أفضل، هنا لا شيء يدار أو شخص يعمل بالمنطق، كل شيء له حسابات أخرى ليس موجودة إلا بذاك الفندق».

صمت ثوانيَ، حتى ظن كلٌ من محمد عبد الله ونبيل سلامة أنه أنهى كلماته، وبادر الأول بعض شفتاه من الحزن عليه، والثاني بدأ بجذبه كما البهائم، حتى باغتهما مجددًا:

-»أتعرف؟ يا ليتني قدمت لمثل هذا اليوم فسادًا أو رشوة أو أي نخاسة، ربما كنت الآن مدير عام أو متحدث إعلامي أو حتى خبير ومستشار يؤخذ بحديثه مآخذ الجد، أبقى لي من مصير ظننته خيرًا، للأسف عَلِمتُ هذا متأخرًا، لكن ليس هنالك أقسى أو أَمَرّ من أن تسرق حياتك منك لأنك اخترت أن تعش نبيلًا شريفًا فتنتهي أنت ويُترك من نالوا من تلك الصفات أسمائها فقط».

نالت كلمات الكاشف الأخيرة من كرامة راعيه الجديد فلم يتركه يبدأ حديثًا جديدًا أو حتى يلفظ حرفًا آخر حتى هم به خارج الفندق، بينما لم يول محمد عبد الله أي اهتمام آخر، بمبدأ عاش الملك، مات الملك، ذهب الأول وانتهى أمره؟

إذن انتهى كل شيء الآن ووجَب عليه البحث عن جديد يشغله.

محمد عبد الله ذو تسعة وعشرين عامًا، قضى ثلاث منها بموقعه لا يبرحه تحت أي ظرف، ليس برضا منه إنما قلة حول وحيلة، هو شاب كسائر شباب جلدته، فاقد الأمل منكسر، محطم الخطوات أسير سراب الهجرة التي لن تأتي، وإن أتت فهو بشخصه يعرف إنه ربما لن يصمد حتى يرى اليابسة الأخرى.

خريج كلية التجارة مثله كمثل العموم من أبناء محافظته بل بلده بأكملها، لم يجد -بما انكب عليه لسنوات يدرسه- ما يستر عورات معدته ويسكت استغاثاتها المستميتة، لجأ لخالد المصري كي ينتشله بعملٍ أيما كان، فوجد نفسه بعد كل تلك السنوات محطمٌ يرتدي ملابس بالية قدً ارتداها من قبله مئات من موظفي الأمن الباحثين عن شيء أرقي وهم غارقون بما يدعونه مؤقتًا ولا يفلتون من شباكه كونهم موظفي أمن لا ناقة لهم ولا جمل بما يعملون، ربما نعت نفسه بسوء الحظ أو بعدم اجتهاده، وربما ظن أن بلادة أتت مع التقدم بالسن وطول فترة مكوثه داخل بلاده إلا أنه طيلة حياته ملازم للبلادة وفعل اللا شيء، نشأ وسط أسرة لا تحرك ساكنًا بحجة أنهم يسيرون بجانب حائط قد يحميهم من أي بطش قد يصيبهم أو يبقيهم من حسان السمعة طيلة حياتهم.

ظل طوال حياته ما أن يبدأ شيئًا ما مع أحد من أقرانه ما هي أيام أو بالأكثر أسابيع حتى يظهر فارق الخسارة والتراجع الشاسع بين مستوى الاثنين، وبكل مرة تكون حجته أن الظروف هي ما جلبته لمستواه الرديء وعمله البسيط وحياته التي لا يقبل، حتى مشيته وهيأته ما هي إلا صورة طبق الأصل لما رآه ويراه فلا جديد يضيفه لنفسه أو يغيره، سنوات كثر وهو تائه لا يجديه أي شيء نفعًا، تغيرت البلاد وتدهور حال عباد وارتقى حال آخرين وهو ثابت لا يحرك ساكنًا غير قادر حتى على الحلم.

ربما فسر ذلك بأنه لطالما استحق الأحسن وألا مكان له هنا ممنيًا نفسه بحصوله يومًا ما على الأفضل، محدثًا نفسه بأنه لربما يومًا ما قد يغادر موضع قدميه إما بأوراق رسمية أو بتكديس عظامه بقارب نجاة يستخدم عادة للهجرة دون أي دليل أو تأكيد على النجاة منها إن فشلت.

حاول كثيرًا أن يجني شهرة أو مال بعدة مجالات -زعم أنه- نبغ فيها، فكنت لتراه بائعًا والشهر التالي يحاول جاهدًا أن يلتزم طريق التدين لعله يصير داعيًا وإمامًا، ولربما قبل أن ينتهي الشهر تراه يبحث عن فتاة أجنبية ذات

جسد ملون بين صفره الشعر وخضره الأعين وابيضاض البدن، ثم تراه بالأخير يستقر على أنه يريد أن يبدأ مشروعه الخاص ليظل فترات طوال لا يعرف ماهية تجارته ولا يجده؛ فيرجع من جديد ينشد نغمات اليأس والتآمر عليه من عدة جهات بعضها معلن والآخر هو شخصيًا لا يعلمه لكنه يسميه جهات دولية تتآمر على شاب مثلي، دون النظر إلى أن شاب مثله لا يحتاج شيء أو شخصًا ما ليتآمر عليه، هو بنفسه متآمر على نفسه.

شخصية نمطية مملة لا جديد فيها ولا أمل منها، حاله بكل شيء كحال عشرات الملايين من أبناء ذات الجنسية، بداية من اسمه الذي يشترك فيه مع مئات الآلاف بل ملايين، لأحلامه التي بالأساس نقلها عن أحلام آخرين دون النظر إلى ما يحلم هو به، وصولًا بأخطائه التي ما هي إلا أخطاء أبناء جلدته كذلك لكن بشكل متكرر ومتطور أكثر وأكثر ملائمة لعصره هو.

حتى سلبيته وعدم إبدائه أي ردة فعل هو من الأشياء التي برع فيها ولم يتوان في حصدها من بيئته فلم يبد له أي شيء غريب وقت أن شاهد مختار السيد يحادث من لم يعرف أحد له اسمًا ولا من أي مكان هو ولا حتى عقيدته أو فكره، وجدوه بينهم كأن صاعقة من السماء ضربت الأرض فأتت به من اللا شيء واللا مكان، رأى مختار السيد واقفًا مع من ثارت حوله الشكوك ولم تثر تجاهه أي ردة فعل أو محاولة لفهم ما يحدث، ربما لأن الوحيد الذي حاول أن يفهم ويجد تأويلًا أتهم بالتقصير وأبعد عن عمله وسلبت حريته لأمد غير معلوم، رأى كل ذلك ولم يحرك ساكنًا أو حتى يفكر ولو قليلًا لم يحدث هذا، كان كل ما يدور بعقله، طالما أنا بخير فأي شيء آخر لا يهم، طالما أنا بعيد وبموضع غير ذي مسؤولية فأنا بمأمن عن أي شيء وكل شيء، حتى حينما رآهم يتجهان نحو بعضهما البعض بتعابير وجهيهما القانطة من أي تفاهم أو نقاش لم يبد أي ردة فعل أو فكر حتى إن ذلك قد يؤثر عليه، فقط أدار وجهه لهما كي ينصت لما يقولان، ربما لن يقوم بأي شيء لكن على الأقل يكفيه إرضاء فضوله وإشباع ظمأ أذنيه حين بدأ مختار السيد حديثه تجاه نزيلهم غير المعلوم هذا:

- «انتظرتك طويلًا!»

= «أوتعرفني؟»

- «إن لم أعرفك كيف لي أن أنتظر قدومك بهذا القدر؟»

= «جيد! الآن على الأقل يمكنني أن أرجح أنك تعرف سبب مجيئي ها هنا!»

- «ولو لم أكن أعرف لما تركتك لحظة واحدة! لا تحسبن أنك فائق الذكاء، شيطاني التفكير، إنما فضولي هو ما دعاني أتركك كي أعي لم تركتني دون أن تفكر حتى بتهديدي ولو بقدر أنملة!»

= «لأني لا أرديك أنت!»

- «ومن تريد إذن؟!»

= «لا أريد أشخاص، إنما أن أحوذ على تلك البناية».

- «أتعتقد هذا ممكنًا؟»

= «هو بالفعل ممكن! لا داع لأن نتجادل كثيرًا حول النقطة، أنا وأنت نعرف جيدًا أنه لا مانع من تبديل الأدوار قليلًا بيننا!»

- «وما المقابل؟»

= «أي شيء تتمناه أو ترجوه سيتحقق لك».

- «حسنًا، لكن وما الإفادة التي ستتلقاها بالمقابل؟ أستأسر من يعملون هُنا؟»

= «حسنٌ، ليس الأسر هو ما أعمل عليه، إنما بث إحساس القهر والعجز لهم، إثبات أنهم يساقون إلى طريق لم يريدوه أبدًا، أن أعينهم صارت عاجزة وأفئدتهم باتت غافلة وكل شيء من حولهم ليس بإرادتهم، أن تتآكل عقولهم

من كثرة التفكير فيما هو آت وبما حل بهم وانتهى».

- «لكن كل أولئك ليس لهم أي علاقة بما حدث لك! إن أردت الانتقام فربما مني أو ممن قتل عزيزتك، لكن هم؟ ما شأنهم هم بكل ذلك؟»

= «بل هم الأولى، القاتل يعرف فعلته ويعيها ويمت باليوم مئات المرات من الحسرة والندم وحتى إن لم يكن لديه أي ذرة من ضمير فهو الخوف من ردة الفعل، لكن أولئك؟

ألم يكونوا هم أول المهنئين؟ ألم يكونوا أول من حمد الله على قتل أمي؟ ألوثت مياههم كما يفعلون هم؟ أأغلقت عليهم سبل أرزاقهم كما يُفعل بهم؟ أسرقت منهم أحلامهم كما سرق منها؟

فرحوا بمقتلها وهللوا وكبروا وحمدوا الله على انفجار الرصاص بجسدها واختراقه له، نعم، أعي أن من قتل يقتل ولو بعد حين، لكن!

ماذا عمن اعتبر قتل برئ انتصار له؟ أإقامة الاحتفالات وإنشاد الأغاني بها رقصًا على دماء من مات حتى دون أن يحاكم ويتقص منه شيئًا اعتيادًا؟

هم من أذنبوا وأساؤوا وأوقدوا نيران الكره والعداوة الحقيقية وليس من قتل حقًا.

الجريمة ليست جريمة قتل بدن! جريمتهم أنهم قتلوا ضمائرهم وألغوا عقولهم وأباحوا الاحتفال بالدماء وأنسونا حرمتها، هابوا الأصوات العالية والسياط وغفلوا عن لعنة الدماء.

هم يستحقون كذلك الاحتفال بتساقط القطرة تلو الأخرى من دمائهم، صار واجب علينا أن نقيم احتفالات سنوية للإعلان عن ذكرى تساقطهم السعيدة».

- «كم كنت أتمنى أن تقتلني أنا بدلًا عنهم!»

= «أنت غير مفيد بأي شيء، عقابك الوحيد الذي تستحقه أن ترى كل شيء يسقط دون حول منك ولا قوة، تعرف أن الأرض تتزعزع من تحت أقدامك وأقدامهم ولا تملك لهم ولا لنفسك عونًا، تمت وأنت لا تملك حلًا رغم درايتك بكل الحلول.

لكن هذا فقط!

إنما لطالما أردت شيئًا أكبر!»

ضحك مختار السيد مطولًا ثم استدار له متسائلًا:

= «تريد بعضًا من النياشين والقلائد التي حُذتها؟»

- «لا! إنما أريد موقعك!»

جحظ مختار وهب عن مقعده متسائلًا مستنكرًا:

«أوتراه سهلًا هذا الحد كي تقفز موقعي بدلًا من أن تتسلقه؟»

- «سيد مختار! كل شيء له ثمنٌ، وأنت أثمن شيء لدينا، دعك من الرفض العفوي التلقائي هذا، ودعنا نتحدث عن الثمن حفاظًا على وقتنا، دعنا لا نهدر ولو أجزاء من الثانية في سبيل ما نصبو إليه!»

صمت مختار ثوانيَ كانت كالدهر عليه، أي إجابة تلك عليه أن يطرح قد يُفلت من براثن عدوه الكامن أمامه، حتى أتته إجابة قد تنقذ ظهره أو لعلها تخلصه من شر يجالسه وهو لا يعرف حدوده ولا إلى أي مدى هو عَتيّ:

- «حسنًا، لعلي أرى أنا نتفاوض على الفندق بأكمله!

هو لك، بما فيه من أثاث وحجارة حتى كل من شُكل من لحم وشحم ودم وبه قلبٌ ينبض فهو لك! تفعل به ما تشاء نفسك وما نويت لهم، مقابل شيء واحد فقط!

ألا يعرف أحدًا أي شيء عن علاقتي وأعمالي مع شريف أبو السعود، لا أريد أن تلطخ سيرتي ولو كان المقابل بقائي كالثكالى على أريكتي أتأمل الماضي وما سَرني فيه، لا أريد أن يقتات الناس يومًا على سُمعتي -والمتبقي منها- حينما لا يجدون ما يشغلون به أنفسهم».

ضحك كثيرًا وتأمله طويلًا محاوره، حتى صار يسعُل من كثرة الضحك وباتت عيناه قريبة من السقوط عن محجريهما من طول التأمل بمختار السيد:

- «عَجِبتُ لك! تعش عمرك بأكمله دون أي محاولة للتطهر أو الخروج عن قوقعة ذنبك هذا والآن تريد أن تخرج خروج آمن ونظيف! عن أي أمن وأي نظافة تتحدث وأنت لم توفرهم ولو لثوانٍ بعهدك بأكمله؟!

لكن! أمرك مُجاب، لك ما طلبت وبدءًا من الآن!»

تبسم مختار السيد ضاحكًا تبتهج أساريره مما سمعه لتوه ناسيًا شيئًا واحدًا فقط تذكره لاحقًا:

- «لكن اسمح لي! كيف لنا أن نُرتب كل هذا ولا ندع مجالًا لشك أن ما حدث كان مدبرًا أو يقصد من ورائه شيئًا إذن؟!»

= «أعلن استقالتك! أخبرهم أنك أرهقت وتريد أن تقضي ما تبقى لك بعيدًا عن أي ضغوطات وأنك ستسلم الإدارة لمن هو أعلى منك شأنًا دون أن تفصح عن اسمي».

- «وهل نعلم لك اسمًا؟»

= «لا عليك، ليس الاسم ما يهم الآن، سيعلمون هم كل شيء لاحقًا!»

- «لا يهم، الأهم لي الآن أن اتفاقنا ساري على ما قد سلف وما هو آت وبدءًا من الآن!»

= «لك ما طلبت!

والآن اخرج عليهم واتلوا عليهم ما أخبرتك به، المهم ألا يمر اليوم دون أن يكون كل جماد وحي يعي أنك لن تكون هنا مجددًا!»

- «حسنًا، اتفقنا!»

نهض مختار السيد قلقًا لكن فرحًا، متوتر لكن متفائل بما هو آتٍ، والآخر يرمق الكل بنظرات الامتلاك والضحكات الزائفة القاتلة ومحمد عبد الله لا يزال يختلس النظر إليهما وبقرارة نفسه متوجس مما هو آت لكن لا بد لديه من إطاعة –ما يفترض– أنه سيسمعه للمرة الأولى، رأى مختار السيد يأمر عبده الكامن بجواره شريف أبو السعود كي يمرر الأمر لكل من تواجد بذات البناية وهو فاقد أي قدرة على طلب العون من أحد أو حتى الرفض بقلبه فقط، هو يعلم أن طالما هذين الاثنين قد اتفقا فلا مجال لتغيير أي شيء، فكر مليًا في أن يغادر، يترك كل شيء ويرحل للمجهول، يستقيل من كل شيء ويهرب، لأين؟ هو بنفسه لا يعرف، لكن المهم أن يهرب قبل أن يرى كل شيء يتدهور وتنساب منه روائح الفشل والانشقاق والشتات، شرد لدقائق فيما قد ينتظره إن نفذ ما يفكر به وفيما كان يتوقع حينما أتى لذلك الفندق، ألم يكن يحلم بتغيير جذري بحياته، ألم يكن يرى الأمل بعمله بموقعه هذا؟ حتى انهدم كل هذا بأقل من ثوان، وقت أن أدرك أن لا مكان له هنالك، ولن يكون لأمد غير معلوم، برح مقعده وبدأ باتخاذ القرار بالتوجه إلى مختار السيد ليعلمه باستقالته، خطا بضع خطواتٍ حتى بدأ هاتفه النقال بالرنين، لم يحدث هذا منذ أيام كُثُر، أخرج هاتفه من جيب بنطاله، لم يكن رقمًا عرفه من قبل أو حتى قام بحفظه ضمن الأرقام القليلة التي تعود للأشخاص الذين يعرفهم، أجاب وظل يستفسر عن مالك الرقم وفيما يحدثه، صمت لثوان وهو يستمع لمن يحدثه من الجانب الآخر للهاتف، اختلف كل من تواجد بساحة الاستقبال عن ثباته وسبب بكائه ولم يعرف أحد لماذا، خمن البعض أن لربما جائه خبر وفاة واحد من أقاربه، ظن البعض أنه من الممكن أن يكون هنالك خبر سيء قد أتاه بخصوص واحد من أصحابه حتى أغلق الهاتف وظل جامدًا بموقعه لا يحرك ساكنًا ثابتًا قد ترتاح الطيور على رأسه دون ذعر، وضع الهاتف بجيب بنطاله والدموع تفور من عينيه محدثًا الجمع المتجمهر أمامه:

«يا بني آدم! أفيقوا واسمعوا لي!

لدي خبرٌ ربما قد يمتعض له بعضكم ويفرح به البعض الآخر، من كنتم تحسبون أنه رحل دون عودة عائد ومن كنتم تراهنون بعضكم على موته حي، ومن خفتم منه سيعود قريبًا ويكون هو أمانكم، من رأيتموه غريبًا سيكون أقرب لقلوبكم منكم، إنه حي! وسيعود قريبًا مهما كرهه البعض ولم يألفه البعض الآخر، خالد المصري حي يُرزق، خالد المصري حي! أخبرني أحدهم أنه بالرغم من دفعكم إياه للانتحار بعد اتهامه أنه سبب كل سلبي أصابكم وتعاطيه جرعة مكثفة من المخدرات، نجا!

أنقذوه من رأوا فيه إنسان يستحق العيش، لا غريب عنكم تسحقونه دون رحمة! أحدهم هاتفني بعد أن رأى أن آخر رقم اتصل به كان رقمي، أخبرني أن خالد نجا وطلب مني أن أخبركم أنه عائد مهما حدث له، سيعيش بينكم مهما حدث، أخبرني أنه سَيُعلِمُكُم كل شيء حدث حين يعود، سيخبركم بالحقيقة وبما كان يجب أن يحدث وما اقترفتموه حتى تصلوا لتلك المرحلة.

أخبرني بكل شيء عنه بلهفة وغبطة لم أر مثلها قط حتى أنني سمعته من فرحته اقترف خطأ باللغة لكنه كان خطئًا يغفر له كل شيء آخر، سمعته وهو يتلعثم حينما قال: «بعد كل ما حدث له المصري خالد...»، ثم صمت لأقل من بضع ثوان وعاد مجددًا يعتذر مني مصححًا خطأه: «أقصد خالد المصري حي!»».

تمت.

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub